دروس من هدي القرآن الكريم

سلسلة دروس رمضان

(الدرس التاسع والعشرون)

سورة الأعراف

من الآية ﴿١٦٣﴾ إلى آخر السورة

ألقاها السيد/ حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ٢٩ رمضان ١٤٢٤ هـ

الموافق: ٢٥/١١/٢٠٠٣ م

اليمن - صعدة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،

وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.

وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

في هذه الآيات التي سمعناها الليلة، والآيات التي سمعناها بالأمس، هي تمثل جزءاً كبيراً من سورة (الأعراف) حول الأمة التي تؤمن من حيث المبدأ بنبوة، ثم يحصل خلل داخلها، كيف تكون الأمور، كيف تكون الرعاية الإلهية، وكيف يكون العقاب الإلهي.

ويتجلى من مجموع ما سمعناه، ومما سبق أيضاً من خلال ما قرأناه في الليالي الماضية: أن الإنسان هو من جهة نفسه هو الذي يبتعد عن هدى الله سبحانه وتعالى، هو الذي يستجيب للشياطين، ويستجيب لهواه، ويستجيب لكل ما يصرفه عن هدى الله، أمَّا هدى الله فهو يأتي على أكمل صورة، وأوضح بيان، فعندما تأتي عقوبة يقول: بأنهم كانوا هم الظالمين لأنفسهم، الله لا يظلم أحداً، ولا يأتي من جانبه أيُّ تقصير في البيان لعباده.

وتتجلى المسألة بشكل - فعلاً - يثير الدهشة، ففي الوقت الذي هو غني عن عباده تمام الغنى ترى ما يأتي من عنده من هدى بأشكال متعددة، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾(الأنعام:١٠٥) وبطرق كثيرة، وآيات ما بين آيات قولية وما بين آيات من واقع الحياة، بشكل يتجلى فيه رحمة الله سبحانه وتعالى، ويتجلى في نفس الوقت قبح موقف الإنسان الذي لا يستجيب لهدى الله، ويتجلى أيضاً شدة البطش الإلهي، وأن الله سبحانه وتعالى لَمَّا كان هو الغالب على أمره، والقاهر فوق عباده يأتي بطشه بشكل لا يستطيع الإنسان على الإطلاق أن يحمي نفسه، وكل ما كان يراها تشكّل حماية له يراها لا تساوي شيئاً على الإطلاق.

مما تحدثنا حوله بالأمس قضية تُعتبَر أساسية جداً، يجب أن نفهمها جميعاً، فيما يتعلق بهدى الله سبحانه وتعالى، كيف يكون تعامل الإنسان مع الله، كيف تكون نظرته إلى الله، ونظرته إلى نفسه، برز مثال عجيب جداً من خلال كلام نبي الله موسى عليه السلام بعد أن أخذته الرجفة هو والسبعين الشخص الذين اختارهم من وجهاء بني إسرائيل لميقات ربه، فقال بعد الحادثة الرهيبة: ﴿رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيرُ الْغَافِرِينَ﴾(الأعراف:١٥٥) هذه فيها آية عجيبة، ويكتشف الإنسان من خلالها أيضاً بأن في أنبياء الله - عندما تقدَّم أشياء تحكي مشاعرهم، وتصور لنا مشاعرهم أن فيها - ما يقتبس الإنسان الهدى فعلاً.

نبي الله موسى عليه السلام يأتي في آيات كثيرة، يذكر الله له أشياء كثيرة، هو إنسان إيمانه بالله بشكل كبير، وبشكل متميز، أي: إنسان لا يثق بنفسه هو، ليس متكلاً على نفسه لأنه قد صار نبياً! دائماً يعرف بأنه لو يَكِله الله إلى نفسه طرفة عين لهلك، كان دائماً حذراً، ويفهم تماماً معنى الإيمان ومقتضى الإيمان، وتؤكد هذه المسألة بغض النظر عن موضوع التفاضل، عندما يأتي خلاف حول: هل الملائكة أفضل من المؤمنين أم المؤمنون أفضل، هذه قضية أخرى لا حاجة لبحثها أساساً.

يجب أن نعرف بأن الملائكة جنس من خلق الله ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لهم دور مخصوص في عبادتهم لله، يقومون به، ولكنهم هم بحاجة إلى هدى الله، أنبياء الله كذلك، أو البشر بشكل عام، بنو آدم جنس آخر من مخلوقات الله لهم دور مُعيَّن في موضوع عبادة الله ليقوموا به، وكلهم بحاجة إلى هدى الله، وفي مقدمتهم من اصطفاهم الله (أنبياؤه) أنهم بحاجة ماسَّة إلى هداه.

ملائكة الله كما حكى الله عنهم: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَولِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٦، ٢٧) ولكن موضوع الإيمان حتى تترسخ مفاهيمه قضية عملية تأتي في ظل رعاية إلهية، يأتي من الطرف الآخر أن يكون في حالة حذر، حالة ألاّ يطمئن إلى موقعه: (هو نبي، قد صار نبياً وانتهى الموضوع) لا، بل يكون دائماً يعرف بأنه يجب أن يثق بالله، لا أن يثق بنفسه هو، لو وثق بنفسه سيهلك.

العبارة التي جاءت من قِبَل ملائكة الله، أو قد تكون من عند بعضهم، لكن قد يكون بعض العبارات التي تكون من قِبَل البعض وهي في نفس الوقت تُعبِّر عن مشاعر الآخرين تُنسب وكأنها إلى الكل، مثلما حكى الله عن المؤمنين في غزوة حنين: ﴿وَيَومَ حُنَينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾(التوبة:٢٥) ويروى أن البعض منهم قال: (لن نهزَم اليوم مِن قِلة) هنا تكلم البعض لكن مشاعر الآخرين، الأغلبية قد تكون على هذا النحو.

بعد أن حكى الله سبحانه وتعالى للملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة، وذكر لهم كيف سيكون هذا الخليفة،

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة:٣٠) هذه العبارة تساوي نوعاً ما في لهجتها في أسلوبها كلمة موسى هنا: ﴿رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ هي تساويها، أي: هي نوع استفسار، نسي هذا الطرف ما يفترضه إيمانه من تسليم مطلق وبسرعة.

جاء كلام الملائكة بعد هذه العبارة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(البقرة:٣٠) و(نحن) هذه خطيرة جداً ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ برز من خلالها أنهم فعلاً يعرفون مقام أنفسهم، وفي مقام رفيع، فينا الكفاية ونحن كذا...إلخ، ظهر أيضاً نوع من الازدراء نوعاً ما ولو كان شيئاً لا يلحظه من يقول هذه العبارة بشكل بارز لكن هذه العبارة توحي فيما يتعلق بآدم.

يأتي الموضوع بشكل يصلون فيه إلى ما كان ينبغي أن يقولوه: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:٣٢) إنك أنت العليم الحكيم، لو كان هناك نوع انتباه عندما قالوا هذه العبارة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فيقولون: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ لانتهت الإشكالية.

وهنا يأتي من جانب الله سبحانه وتعالى، ثم تلحظ فعلاً مِن تعامل الله سبحانه وتعالى مع ملائكته، مع أنبيائه، مع البشر، مع أمة من الأمم، في وضعية مُعيَّنة وفي وضعية أخرى يختلف التعامل نفسه، مع أن الملائكة يعلم عنهم أنهم مؤمنون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، عباد مكرمون، لكن القضية الإيمانية هي قضية عملية، قضية تربوية، لا تأتي شحنة إيمانية هكذا تلقائياً، شحنة إيمانية؛ لأن الإيمان أساساً هو لا ينفصل عن موضوع حركة التدبير الإلهي، عندما نأتي نحن نقيِّم الإيمان (ما هو؟) تجد أنه لا يوجَد إيمان هكذا فارغ، بل الإيمان كله عملي، كل إيمانك متعلق بحركة هذا الكون وبحركة مُلْك الله - إن صحت العبارة - التدبير الإلهي بملك الله، بحركة تدبيره وملكه.

فلم يأتِ من جانب الله سبحانه وتعالى ما يبدو وكأنه مؤاخذة لهم على هذه العبارة، جاءت عملية تربوية من جهة، وتأديبية نوعاً ما من جهة؛ ليعرف الإنسان (الإنسان) وأنا أعتقد أن الإنسان فعلاً له دور يهتدي به الملائكة، والملائكة في داخلهم يحصل أشياء مما عرض عنهم؛ ليهتدي به الإنسان، أي: القضية متبادلة، عملية متبادلة، يهتدي الملائكة عن طريق حركة الناس، وموقف الناس من هدى الله، وأشياء من هذه كثيرة، يهتدي الإنسان بما يذكره الله عن ملائكته.

هنا يقول لك في هذه المسألة: بأن التسليم الإلهي يجب أن يكون هو الشيء المترسخ في ذهنيتك، ومشاعرك، وأقرب شيء في ذهنيتك أمام أيِّ قضية تطرأ، أمام أيِّ قضية تحصل.

نبي الله موسى عليه السلام هنا كيف قال؟ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾(الأعراف:١٥٥) بسرعة، هذه الروحية - فعلاً - هي ماذا؟ روحية، أو قل: منطق من يرسخ في نفسه التسليم المطلق لله، والإيمان بأن الهدى هو من عند الله، وأنه كإنسان يجب أن يكون واثقاً بالله، لا يثق بنفسه، إذا انفرد مع نفسه، إذا وثق بنفسه، وقال (نحن) أو أشياء من هذه، يأتي وراءها أشياء أخرى. فجاء تسليم من عند موسى بسرعة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ﴾(الأعراف:١٥٥، ١٥٦).

هذه قضية أساسية بالنسبة للإنسان بشكل عام، سواءً الأنبياء أو العلماء أو الأولياء أو كل فرد من الناس يجب أن يكون دائماً يعرف أن أساس أن يهتدي، وأساس أن يحظى بعناية الله ورعايته، أن يكون مرسِّخاً في نفسه التسليم لله، والتسليم الواعي، أنت مؤمن بأنه حكيم، إذاً يجب في كل فعل من أفعاله، تسمعه أو تراه أن تؤمن بأنه حكمة، أن الله لا يفعل شيئاً إلا وهو حكيم، فتقول: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

تجد كل ما يأتي من أشياء تُعرَض هنا، من قصص الأمم الماضية، سواءً الأمم التي كفرت وفي الأخير ضُرِبت، أو الأمم التي آمنت مبدئياً، وحصل داخلها أشياء كثيرة من هذه مثلما كانت عليه وضعية بني إسرائيل، كلها كلها تركز حول موضوع (التسليم) نهايتها أو قل: لبُّها وخلاصتها التسليم، التسليم بمعنى: أن الإنسان يكون معترفاً بأن الله هو إلهه، وربه، ويعرف الله، يعرف نفسه أنه عبد لله مأمور يجب عليه أن يهتدي بهدى الله، وأن يلتزم بهدى الله، أنه عبد لله بكل ما تعنيه الكلمة (يسلِّم) لا يأتي من جانبه أيُّ خاطرة تساؤل أمام فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان قاصر، قاصر في مداركه، لا يستطيع أن يدرك بعض تصرفات البشر أنفسهم ناهيك عن تدبير الله وأفعال الله سبحانه وتعالى.

كما ذكرنا بأنه بالنسبة لنبي الله موسى نفسه في موضوع (الخَضِر) ألم يُبدِ له أفعالاً استغربها؟ وهو إذاً أمام إنسان كمثله، أو قل مخلوق كمثله، سواءً كان إنساناً أو شيئاً آخر، مخلوق كمثله، لم يستطع هذا النبي العظيم الذي قال الله فيه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١) أن يدرك تماماً الغاية من تصرفات هذا الرجل الذي أوحي إليه أن يذهب إليه ليتعلم منه. فكيف يحاول الإنسان أن يعرف، أو يقطع، أو يتصرف وكأنه قد أحاط بالله علماً، يحيط بكل تدبير الله، فيأتي من جانبه استفسارات، يأتي من جانبه استفهام على هذا النحو الذي فيه نوع من التساؤل الذي يبدو وكأنه يعرف كل غايات تدبير الله وأفعاله سبحانه وتعالى، هذا هو التسليم، التسليم قضية أساسية.

إذاً التسليم نفسه يقتضي منك أن تعطي أهمية لِمَا يأتي من هدى الله، تعطيه أهمية كبيرة، تتفاعل بجدية معه، وإلاّ فسيكون الإنسان معرَّضاً لأشياء خطيرة، معرَّضاً لأن يُضَل، ومعرَّضاً لأن تأتي له ابتلاءات أيضاً يَضِل بعدها.

هنا في قصة أصحاب هذه القرية: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾(الأعراف:١٦٣) قرية مطلة على البحر يسكنها بنو إسرائيل ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يتعدون ما فرِض عليهم في يوم السبت ألاّ يصطادوا السمك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ فوق سطح الماء، وقريبة إلى الساحل، الحوت تأتي أمامهم هكذا. ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(الأعراف:١٦٣).

هذه القضية تتجلى في داخل آيات القرآن أنها قضية خطيرة على الإنسان، وأنه في نفس الوقت يُقدَّم داخل القرآن ما قد يجعل الإنسان بعيداً عن ابتلاءات من هذه، منها هذه القضية: التسليم المطلق لله، والإيمان الواعي، واللجوء الدائم والمطلق إلى الله، وإلاّ فقد تتعرض لابتلاءات وأنت تظن أنك فاهم ومؤمن تماماً (ولو يأتي ما يأتي لن أتغير) أليس بعض الناس قد يقول هكذا؟ (لو يأتي ما يأتي لَمَا تحولت، لو، لو، لَمَا حصل كذا).

هذه قضية: لا تطمئن إلى نفسك على الإطلاق، لا تنقطع إلى نفسك، بل انقطع إلى الله؛ ولهذا حكى عن الراسخين في العلم في قوله حاكياً عنهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عندما رأوا آخرين زائغين: قلوبهم فيها زيغ ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لم يقولوا: (أمَّا نحن فنحن راسخون في العلم، ولا يمكن أن يُزاغ لنا قلب، ولا يمكن أن تنزلق لنا قدم) وأشياء من هذه، لا ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ ترحمنا أنت، ترعانا أنت، حتى لا تزيغ قلوبنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران:٨) أنت الذي تهب الرحمة، أنت الذي ترعى أولياءك حتى لا تزيغ قلوبهم.

هؤلاء حصل لهم هذا الابتلاء، وذكر في سورة (المائدة) أيضاً: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيءٍ مِنَ الصَّيدِ تَنَالُهُ أَيدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٩٤) هؤلاء أناس لم يحصل من جانبهم تسليم لله، حصل منهم تعدٍّ في السبت، ربما كانوا يتعدون في السبت ويظنون أنه اصطياد طبيعي، أو عندهم نية أن يتعدوا في السبت، وهم لا يزالون يصطادون بالطريقة الطبيعية، فيأتي ابتلاء إلهي، تأتي الحيتان ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أمامهم على سطح الماء ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ﴾ أي: ما بعد السبت لم يعد هناك شيء، قد صار مثل باقي الوقت، يحتاج إلى اصطياد بالطريقة الطبيعية ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(الأعراف:١٦٣).

الله حكى عن المؤمنين في آخر سورة (البقرة): ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَو أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَينَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَولاَنَا﴾(البقرة:٢٨٦) أليست مشابهة تماماً لِمَا حكى الله عن موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾(الأعراف:١٥٥)؟ أي: أنت أولى بنا من نفوسنا، لا أمر لنا في نفوسنا معك ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَولاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٨٦). هنا يذكر ماذا؟ ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ نحن بشر، ونحن ضعاف، لا نثق بأنفسنا فيما لو تأتي ابتلاءات مُعيَّنة.

هذه القضية لم يجعلها الله قضية غامضة بمعنى - مثلاً - أن الإنسان ربما قد يصفعه الباري وهو لا يدري، لا، هناك أساسيات، هناك أساسيات فعلاً قد تبعدك عن ابتلاءات قد تضعف أمامها فيما لو وقعت، منها هذه، تكون أنت لا تثق بنفسك على الإطلاق مهما بلغ إيمانك، مهما بلغت أعمالك الصالحة؛ لأن الشيء الطبيعي بالنسبة للإنسان إذا كان مستشعراً التسليم لله وأنه عبد لله، أنه كلما كثرت عبادته لله، وكلما عظمت عبادته لله سبحانه وتعالى ازداد تسليمه.

فالعبادة هي أساساً عمل في عمق التسليم لله، وتجليات لتسليم الإنسان لله، لا تأتي العبادة لله على نحو: كلما تعبَّد الإنسان لله كبرت نفسه عنده إلاّ عبادة مَن؟ الجاهلين، عبادة المغرورين؛ لأن الشيء الطبيعي أنه كلما كنت أكثر عبادة لله كنت أكثر تسليماً لله.

لاحِظ هنا نبي الله موسى عليه السلام في هذه اللحظة، تُلاحِظ تسليماً مطلقاً، لم يلتفت لنفسه أنه نبي، أو غير نبي، نفسه كعبد لله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيرُ الْغَافِرِينَ﴾ لم يقل في نفسه: (قد أصبحتَ نبياً فكيف لا يغفر لك وأنت نبي؟!) لا يوجد لديه هذه الفكرة، بل هو منقطع تماماً في التسليم لله، والذي يسيطر على مشاعره العبوديةُ لله سبحانه وتعالى.

لهذا لا تأتي الابتلاءات بطريقة إلاّ وللإنسان من جهته هو أسبابها، الابتلاء الذي هو من هذا النوع، ابتلاء كما ذكر في موضوع الصيد في سورة (المائدة): ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيءٍ مِنَ الصَّيدِ﴾(المائدة:٩٤) والابتلاء الذي ذكره هنا بالنسبة لأهل هذه القرية: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يفسقون. الفسق: - وهذا كما نقول دائماً: نحن نشكو من التغيير في المصطلحات، (الكفر) غيروا معناه، (الضلال) غيروا معناه، (الهدى) غيروا معناه، (الفسق) غيروا معناه، كل شيء تغير معناه - الفسق معناه: الخروج عن الطريقة الإلهية التي رسمها، الخروج عن هداه، الفسق قد يأتي وأنت لا تشعر، من هو ضال فهو يُعتبَر فاسقاً بمعنى خارج عن الطريقة، متى ما خرج الإنسان عن الطريقة أصبح عُرضة لأشياء كثيرة جداً، أمَّا وهو في الطريق وأن تكون فعلاً في الطريق تعرف أن الخط - إذا كانوا يعملون على (الإسفلت) مثلاً خطوطاً - فالخط الرئيسي في الطريق هو التسليم لله، فتكون مشاعرك على هذا النحو الذي حكاه الله عن نبيه موسى عليه السلام.

هنا لا تأتي ابتلاءات تخرجك أبداً، بل ابتلاءات مساعدة، ابتلاءات إلى الأفضل، ليست ابتلاءات تخرجك خارجاً أبداً، لكن متى ما أصبحت خارج بأيِّ طريقة قد تكون تفسق وعندك معتقدات صحيحة بأشياء في مشاعرك أنت، لديك قصور في التسليم لله مثلاً، هذا يُعتبَر خروجاً عن الطريقة التي رسمها الله لعباده كيف يكونون عليها في نظرتهم لأنفسهم، كيف يكونون هم في مشاعرهم في وجدانهم الداخلي، كيف تكون نظرتهم إلى أنفسهم، فِسْق عنها تكون مُعرَّضاً لابتلاءات قد تخرجك فعلاً، ليتبين لك بأنك لا تستطيع أن تشكّل ضمانة لنفسك كيفما كنت على الإطلاق.

عندما تتعبد تتعبد، وكلما تعبدت لله بفرائض ونوافل وأشياء من هذه رأيت نفسك تكبر وتكبر أنت عند نفسك؛ هنا ستسقط إلى الحضيض فعلاً، تعبَّد لله وأنت في الطريق، لا يكن تعبُّد الفاسق؛ لأن كلمة (فسق) في اللغة العربية بمعنى: خرج عن الشيء، الخروج التلقائي، أو الخروج المتعمد، أو كيفما كان، الفسق معناه: الخروج عن الجادة، أو الخروج عن الشيء الذي كان يجب أن يكون عليه.

كلمة (فسق) هي كلمة عربية من قبل تنزل القرآن، وكلمة (هدى) وكلمة (ضل) وكلمة (كفر) كلها من قبل أن يتنزل القرآن، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، هؤلاء عندهم فسق من النوع الواضح، أي: عندهم تعدٍّ، والتعدي في السبت يُعتبَر فسقاً، عندهم تعدٍّ واضح. إذاً هنا سيأتي الابتلاء بشكل يجعلهم أيضاً ربما ينزلقون أكثر، وهذا الذي حصل.

كان الشيء الطبيعي لك عندما تفسق مرة أن ترجع إلى الله؛ ولهذا جاء بعد يذكر عن المتقين كيف هم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا﴾(الأعراف:٢٠١) ألم يقل الله هكذا؟ ترجع إلى الله، أمَّا أن تبقى على ما أنت عليه، أو تقول: (الله غفور رحيم) مثلما حكى عن آخرين: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(الأعراف:١٦٩) هذا فسق يأتي بعده ابتلاءات، كلها ذات الشمال (إلى الأسفل) نعوذ بالله.

يتبين هنا طائفة أخرى، طائفة الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر؛ لينطلقوا من شعور بمسؤولية، حتى وإن لم يكن الآخرون لديهم ظن بأنهم يمكن أن يستجيبوا ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَومًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَو مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾(الأعراف:١٦٤) هؤلاء هم أناس منتهون[1] ما فائدة أن تَعِظُوهم؟! أتحاولون أن يتركوا ما هم عليه من فسق؟! ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ هذه مسؤوليتنا، ونُعذَر إلى الله بأننا أدينا مسؤوليتنا فنهينا الآخرين عمَّا هم عليه من فسق وتعدٍّ لِمَا فرضه عليهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف:١٦٤) ولأنك عندما تُقدِّم النصيحة تُقدِّمها في أجواء من هذه (عسى) لأن الإنسان لا يستطيع أن يقطع مع آخر بأنه بشكل لم يعد محلاً لـ(عسى) أو (لعل) نهائياً، لا أحد يعلم ذات صدور الآخرين أبداً. فأنت تُقدِّم النهي عن المنكر إعذاراً إلى الله وفي نفس الوقت عسى أن يهتدوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

تقدَّم بالنسبة للأمم التي كان لها موقف جماعي في مواجهة أنبيائها كيف أنها تُضرَب نهائياً، أليست تُضرَب؟ داخل الأمم التي هي محسوبة على دين الله، محسوبة على الإيمان برسوله، وكتابه، يحصل تعدٍّ من أناس

(١) مُنْتَهُون: هالكون.

فإذا لم يحصل أمر بمعروف ونهي عن منكر من جانب الآخرين، وظلوا على عملهم في ماذا؟ في هذا المجال، فالعقوبة الإلهية قد تأتي بالشكل الذي ماذا؟ تخص، لا تأتي عامة كما هو الحال في الأمم الأخرى، الأمم التي يكون موقفها عامًّا في مواجهة أنبيائها.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(الأعراف:١٦٥) هنا لا تأتي عقوبة شاملة، لكن إذا كان الطرف الآخر على هذا النحو: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ ﴿أَنجَيْنَا﴾ لم يقل فأنجينا الآخرين الذين لم يفعلوا هذا وهم ساكتون هناك، لا ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ هؤلاء هم الذين سينجَون، أمَّا الآخرون الذين يعملون العمل المنكر، والساكتون، أو المداهنون، فهؤلاء قد يكون مصيرهم واحداً.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وهذا الشيء مما يكون داخل الأمم، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى، من رحمته، ليست تصرفاته مثل تصرفات الأمريكيين، نراهم - مثلاً - قد يكون المطلوب شخصاً واحداً من منطقة ويداهمون المنطقة كلها، يداهمونهم كلهم هكذا. الله سبحانه وتعالى يؤاخذ العاصين فقط، والعاصون هم نوعان: من يعملون المعصية، ومن يسكتون عنها. وينجِّي الذين ينهون عن السوء.

إذاً فهذه تعطي الناس قاعدة: - لأن الله سبحانه وتعالى هو الله الذي لا إله إلاّ هو، الحي القيوم، لا يزال حياً قيوماً، مدبِّراً لشؤون السموات والأرض، لا تزال سننه في عباده قائمة - أن الشيء الذي يجعل الناس يخافون على أنفسهم، عندما يرون أن هناك منكرات، وهم في نفس الوقت ساكتون على أساس أنه ماذا؟ خائف لا يقول شيئاً، أو يتكلم، أو يكون له موقف منها، فيلحقه شيء يضربه، لا، يجب أن تخاف من الله سبحانه وتعالى، من هذه السُّنة: أنك إذا لم تتحرك قد تُضرَب، أن الشيء الذي هو نجاة لك هو: أن تنهى عن السوء.

في مرحلة كهذه التي نحن فيها، أليس يَظهَر الكثير من أقوال الناس بالشكل الذي يدل على أنه من ظاهر القرآن ناهيك عن أشياء تستوحي منه ليس له أثر في النفوس. هنا يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أنجينا الذين ينهون عن السوء، أليس هذا يُعتبَر جواباً كافياً على أيِّ إنسان قد يقول لك: (اتركْ، إنما فقط قد تؤدي إلى أن يلحقك كذا، ومشاكل) وأشياء من هذه، يخوفك، قل: لا، إن القضية التي يجب أن نخافها هي عندما لا نعمل، عندما لا نتحرك، عندما لا ننهى عن السوء.

﴿فَلَمَّا عَتَوا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(الأعراف:١٦٦) نعوذ بالله. إذاً هو هنا يُبيِّن بأن الله سبحانه وتعالى يؤاخِذ، وكما أنه قادر على أن يؤاخِذ بشكل عام أمة من الأمم هو عالِم بعباده جميعاً، يستطيع ويعرف أن يؤاخِذ على طريق التخصيص: أخذنا الذين ظلموا ﴿فَلَمَّا عَتَوا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أليس هو يُبيِّن هنا فئة خاصة من المجتمع؟

أيضاً يوجد فارق هنا، لاحِظ كيف الفارق بين منطق من قالوا لهم: (ما فائدة وعظكم لهم؟) وبين ما يحصل اليوم، الفارق بشكل عجيب، هنا سيقول لك: (اسكتْ، ستجلب الشر علينا، اسكتْ، لا دخل لك، ماذا يمكن أن تعمل أنت في هذا الموضوع؟!) هؤلاء لا يزال منطقهم الذين آخذهم الله على سكوتهم، منطقهم بأنه ما فائدة أن تَعِظوا قوماً ربما قد أصبحوا محكوماً عليهم؛ لأنهم قد أصبحوا فاسقين، فسقهم ظاهر، قد أصبح محكوماً عليهم بالعذاب الشديد؟! أليس منطق هؤلاء أفضل من منطق الناس اليوم؟ فعلاً لا يزال أعلى، أمَّا هذا فيقول لك: (اتركْ) بل ربما في الأخير يحاول أن يجعل موقفك المخالف لموقف الدِّين نفسه، بمعنى: أن هذه الحالة التي هي ظاهرة في الناس يصدون بها من يعمل في عمل كهذا وهو يذكِّر الناس بالله سبحانه وتعالى، وبخطورة كبيرة محتملة من جهة الله سبحانه وتعالى فيما إذا قصَّروا، خطورة كبيرة من جهة العدو، وهو عدو يعرفه الناس، عدو كبير وإمكانياته كبيرة، يأتي ليقول: (اتركْ، لا دخل لك) لا يقول: (يا أخي، اتركْ، هؤلاء الأمريكيون هم أعداء لله، وربما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) هو لا يقول هذه على الأقل، هذا سيكون منطقاً أسهل من المنطق الذي يقدِّمونه.

في حالة كهذه يرجع الإنسان إلى قاعدة معروفة لديه: أنه لا يعلم الغيب، أنت تعتقد بأنك أنت قاعد، أو أنت مثلاً قمت تصد عن عمل هو نهي عن السوء، وتتصور أنه كيف يمكن أن يأتي لك مصيبة وحدك؟! الإنسان لا يعرف تدبير الله، لا يعرف كيف يمكن أن يأتي له الله، ومن أين يأتي له الله، الله يقول: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾(الحشر:٢) في كثير من الحالات التي يؤاخذ فيها نوعية من عباده يقول: ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أو يقول لمن يتحركون أنفسهم لينهوا عن سوء يقولون: (نحن أمام خطورة كبيرة عامة، إذاً هي بالتأكيد ستلحقنا

ولو كنا ناهين عن السوء؛ لأنه شيء عام قد يعم شعباً بكله، لا بُد أن يلحقنا) يجب أن يفهموا بأن الله قال هكذا: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾(الأعراف:١٦٥).

أيضاً ألاّ تضع أنت للنجاة قائمة وتوصِّفها أنت ما هي النجاة؟ النجاة عند الله، دع الله هو الذي يختار لك النجاة، قد تكون نجاتك - فعلاً - بأن تستشهد في سبيله، ليس معنى نجاتك هو ألاّ يحصل عليك شيء! قد تكون نجاتك أنت كإنسان كشخص مُعيَّن في أن تستشهد في سبيله، ربما أنك لو لم يحصل لك هذا: أن يختارك الله فتستشهد في سبيله، قد يحصل شيء آخر يجعلك تتحول، وفي الأخير تهلك.

فالإنسان يترك الأمور لله، يصدِّق بوعد الله، يثق بالله، ولا يُقدِّم خطة مُعيَّنة لله، يقول: (أنا أريد أن تكون النجاة على هذا النحو، أريد أن يكون نصرك على هذا النحو، أريد أن يكون تأييدك على هذا النحو) لا، الإنسان يسلِّم أمره لله، ويثق بالله، ويصدِّق بوعود الله، والله هو الذي يفعل ما يريد، وبالتأكيد لن يختار لأوليائه إلاّ أحسن شيء لهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأعراف:١٦٧) أي: قضى سبحانه وتعالى بأنه على طول حياتهم، على طول تاريخهم، أن يبعث عليهم، ولا نستطيع أن نقول بأن معناه يومياً أو سنوياً، بل يبعث هو متى ما أراد ومتى ما شاء.

عندما يقول في هذه الآية: ﴿إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾ مع أن أولئك قد قال عنهم: ﴿فَلَمَّا عَتَوا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(الأعراف:١٦٦) ألم ينتهوا؟[1] وأولئك الذين اعترضوا على مَن نَهَوا عن السوء، ألم ينتهوا أيضاً؟ هذه هي تُعبِّر عن قضية خطيرة جداً: أنه عندما يَعتبِر الأجيالَ الموجودة مِن بعد امتداداً لأولئك في روحيتهم، في نظرتهم، امتداداً يبرر لهم - تقريباً - ما هم عليه، ما هو الشيء الذي يجعل القضية على هذا النحو: يجعل الجيل المتأخر امتداداً للأول؟ ما هو؟ ليس فقط موضوع الولادة، بل الثقافة، أخطر شيء على الناس هو الثقافة الخاطئة، فيمكن أن يكون - مثلاً - أبوك الأقرب أو جدك ضالاً وأنت لا تسير على نهجه بل تُعتبَر مهتدياً، وتُعتبَر من المفلحين ومن الناجين وهو جدك الأقرب، لكن مَن بينك وبينهم مئات السنين أو آلاف السنين وأنت تسير على ثقافة هي امتداد لثقافتهم هم: امتداد لافتراءاتهم، امتداد لتبريراتهم، امتداد لأهوائهم التي تتحول في الأخير إلى ثقافة، معنى هذا ماذا؟ ستبقى القضية، وكأنك هُم، وكأنك في موقعهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ﴾ أليس معناه الأجيال التي لها صلة بهم وحالها حالهم؟ ليس المعنى مجرد كونهم أبناءهم من ناحية الولادة، بل حالهم حالهم، ونظرتهم نظرتهم، ما الذي يجعل حال الأجيال المتأخرة كحال الجيل الأول إلاّ ماذا؟ ثقافتهم، ثقافة الجيل الأول تبقى ممتدة. هذه حالة خطيرة جداً، وهنا تضيع فوارق مئات السنين بينك وبين الجيل الأول، ولو بينك وبينه ثلاثة آلاف سنة، ستكون امتداداً له، وتُعتبَر منهم، وحكمك حكمهم، ومصيرك مصيرهم.

بيَّن في آية أخرى بأن ما كان لدى ذلك الجيل في أيام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هي مجموعة أهواء ممن ضلوا من قبل، ألم يقل: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَومٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾(المائدة:٧٧)؟ لَمَّا كانوا متبعين لِمَا قدَّمه لهم الأولون، وهو في الواقع أهواء وضلال، اُعتبِروا امتداداً لهم، بيَّن لك بأن الذي لديهم هو الذي كان لدى أولئك والذي على أساسه عوقب أولئك (الجيل الأول).

والخطورة في هذه القضية: أن المسألة تصل أحياناً إلى داخل الأمة المتدينة، أي: الأمة ذات الدِّين، أن الأهواء المخالفة لأوامر الله تتحول إلى ماذا؟ تُقدَّم إلى الناس مصبوغة بصبغة دينية، ويُرمَّز أصحابها، يُعتبَرون عظماء في تلك الملة، عظماء في ذلك الدِّين، يُرمَّزون، يُعتبَرون رموزاً، لا تدري وإذا بالأمة في وضعية متشبثة بشيء هو خطير جداً عليها، وفي نفس الوقت بعيدة عن أن تخرج منه؛ لأنه قُدِّم لها بشكل دين، ومن صنعوا هذه الأهواء وعملوا هذا الضلال قُدِّموا رموزاً في الملة، رموزاً في الأمة؛ هذه حالة رهيبة جداً.

لهذا يأتي عنها أن يعرف الإنسان الله سبحانه وتعالى، ولم يربط الأمم في موضوع الهدى ببعضهم بعض، لم يربطهم في موضوع الهدى، بل ذكر بأنه حي قيوم، وأن مسيرة الحياة متواصلة، وأنه هو الذي سيأتي بهداة آخرين من عنده على طول الحياة، لم يربط الأمم ببعضها بعض ويقول: (يكفي، نحن قد قدمنا لكم قبل ألف سنة، أو قبل ألفي سنة، ولكن السبب في أصحابكم، وانتهى الأمر، لم يعد هناك إلاّ الذي قد مضى إن استطعتم أن تعرفوا أنتم من جهة أنفسكم وإلاّ فيكفي، فاتتكم القضية) لا، بل ربط عباده به هو؛ ولهذا يؤكد بالنسبة

(١) ألم ينتهوا: المقصود بها في هذا السياق: ألم يموتوا منذ مئات السنين.

لرسله كيف يجب أن تكون نفسياتهم هم، إنما يأخذون عبرة من الماضين، فبالنسبة للصالحين من أسلافهم خط الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩٠) والآخرون يأخذون عبرة ودروساً منهم، لا تظن بأنك مربوط ارتباطاً هكذا بالجيل الذي قبلك بمائة سنة.

أنت يجب أن تسير على طريق واحدة وتسأل الله؛ ولهذا عُلمنا في الفاتحة من جهة الله أن ندعوه: ﴿اهْدِنَا﴾ ألسنا ندعوه هو؟ لأنه حي قيوم، من يقولون: ﴿اهْدِنَا﴾ قد يكونون في القرن الثاني، في القرن الثالث، في القرن الخامس، في القرن العاشر، في القرن العشرين، وهم دائماً يقولون: اهدنا، اهدنا...إلخ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وبالتأكيد صراطه هو الذي رسمه، وهو في نفس الوقت ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾ لا نستطيع نحن أن نغربل الحياة نحن فننتقي مَن أنعمت عليهم، ونعرف كيف كان صراطهم بالتحديد، نحن بحاجة إليك أن تهدينا أنت.

فالذي في سورة (الفاتحة) يعني خطاباً يومياً من جهة كل إنسان مع الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿اهْدِنَا﴾ أليس هذا خطاباً يومياً؟ وأنت تخاطب مَن هو حي قيوم، ومن يمكن أن يمنح الهدى يومياً يومياً، ولكل جيل ولكل الناس عندما يخاطبونه ويعرفون فعلاً ما يقتضيه خطابهم، عندما يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وعندما نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ نعود إلى القرآن، لا نقول: اهدنا الصراط المستقيم، ثم نقول: نحن على سيرة السلف الصالح مثلما يقول الآخرون، أليسوا يقولون هكذا؟ لأن المسألة قد قُدِّم لك أناس هم ممن خالفوا، رُمِّزوا حتى أصبحوا عظماء في هذه الأمة، وقد أصبحتَ تراهم أنت سلفاً صالحاً، لو تسأل أيَّ إنسان من طوائف أخرى، ألا يتمنى أن يكون على سُنة أبي بكر وعُمر وعثمان ومعاوية ويزيد وعمرو بن العاص هؤلاء وأمثالهم؟ لأن هؤلاء قُدِّموا لديه بأنهم سلف صالح.

لكن لا، أنت قل لله: (اهدنا أنت صراط الذين أنعمت عليهم، أنعمت عليهم، لا نستطيع أن نميز إلاّ عن طريقك أنت، أنت الذي تهدي إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، ونعرف مِن عندك أنت لِمَا يمكن أن نعرفه مثلاً داخلنا كأمة، مِن عندك أنت نعرف مَن أنعمت عليهم) وتعود إلى القرآن، يعود الناس إلى القرآن، لا نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ونرجع إلى ما عليه السلف الصالح الذين قد سميناهم وقُدِّموا لنا أنهم سلف صالح، وأنت تراهم اختلفوا فيما بينهم، وتقاتلوا فيما بينهم، هل يمكن أن تحكم بأن أولئك كلهم كانوا سلفاً صالحاً؟ أبداً، لا يمكن أن تحكم لمختلفين متناحرين متقاتلين بأنهم كلهم سلف صالح، فيهم أناس صالحون قد لا تدري بالتحديد مَن هم، وإذا كنتَ تدري فغيرك لا يدري، إذا قُدِّم لك أنت من هو فعلاً سلف صالح على أنه سلف صالح وهو في واقعه سلف صالح، فهناك آخرون سيُقدَّم لهم آخرون ضالون على أنهم سلف صالح، ما الذي يشكّل ضمانة من هذه للجميع؟ أن يسألوا الله هو، ويرجعوا إلى ما بين أيديهم من هُداه، ويسيروا على الطريقة التي رسمها هو.

ولهذا كانت هامة جداً ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾(الفاتحة:٧) أليسوا السلف الصالح؟ لكن نقول له هو، نطلب منه هو بدعاء أنه أنت الذي تهدينا إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ وأنت الذي تعلم من هو الذي أنعمت عليه، ومن هو الضال، ومن هو المغضوب عليه.

هذه الآية تُعتبَر مؤشراً خطيراً جداً، ألاّ يطمئن الناس إلى ما قبل مائة سنة، أو مائتي سنة، وهكذا، بل أن تنظر إلى ما بين يديك من هدى الله، وإلى الله دائماً، أن تعرف بأن ما تركه السابقون وما قدموه من ضلال وعُوقِبوا على أساسه، إذا كان لا يزال حياً في أوساط الناس جيلاً بعد جيل، فسيكون حُكمهم حُكم أولئك، ألم يقل هنا: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؟ وهم قد ماتوا قبل آلاف السنين، أو قل: قد ماتوا قبل ألفي سنة، وهنا يأتي بعبارة: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ﴾ لأن الأجيال المتأخرة كأنها أولئك تماماً؛ لَمَّا كانوا امتداداً لهم عن طريق ماذا؟ الامتداد عن طريق الثقافة التي تنزل معناه أن القضية خطيرة جداً.

عندما ننطلق لنقيم ثقافتنا فعلى أساس القرآن؛ لأنه ما أوخِذ به من قبلنا بمئات السنين، ما حصل من أخطاء قبل مئات السنين ستضربنا، وسنكون امتداداً لأولئك ممن ضلوا ولو كان بيننا وبينهم آلاف السنين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأعراف:١٦٧) لهذا عندما ننظر إلى بني إسرائيل اليوم ألم يحصل لهم - تقريباً - أشياء كثيرة، وهم في أوروبا، وحصل لهم سوء عذاب وهم محتلون لفلسطين، مع أنهم دولة قوية، ولديهم إمكانيات كبيرة؟ لكن شيء من

جهة الله لا يستطيعون أبداً أن يسدوا منفذه ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فهو يعاقب هنا في هذه الحياة إضافة إلى عقابه في الآخرة. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن رجع إليه، ولمن تاب إليه، ولمن اهتدى بهداه.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف:١٦٨) وهذه القضية أيضاً من القضايا الهامة التي نأخذ منها عبرة في موضوع وحدة كلمة الناس كما يقول الكثير. بنو إسرائيل ثقافتهم هي بالشكل الذي يربط بعضهم مع بعض، ثقافة قومية، ثقافة انزوائية داخلية، ومع هذا شتت الله شملهم، وقطّعهم في الأرض.

عندما يقول الناس: (لا نريد أن ندخل في موضوع مُعيَّن) وهو شيء من هدى الله، شيء لا بُد أن يعملوه (من أجل أن تبقى كلمتنا واحدة) سيفرق الله شملهم، وهذه عبرة لنا، فعلاً ترى ثقافة بني إسرائيل في كتب (العهد القديم) كلها ثقافة تجعلهم كالإخوة فيما بينهم لكن لا يستطيعون. النفوس هي بيد الله، وحياة الناس هي بيد الله، قطّعهم في الأرض، مزقهم في الشعوب.

ألم تكن ثقافتهم بالشكل الذي تجعل منهم أمة واحدة؟ ضرَب بينهم عداوة وبغضاء، رغم أن ثقافتهم ثقافة واحدة، أي: ثقافة تشدهم إلى بعضهم بعض، فاليهودي ينظر فقط في الدنيا إلى اليهودي، يرى ما يُقدَّم إليه وكأنه ليرعى اليهودي ويحب اليهودي ويحترم اليهودي، ويعمل كل شيء لليهودي، ومع هذا مزقهم الله.

كذلك الناس عندما يأتي موضوع، نحن قلنا في جلسة سابقة: وحدة الكلمة هي قضية لا بُد من تدخّل إلهي فيها، ووحدة الكلمة يجب أن تكون على أساس دين الله، ووحدة كلمة ليعمل الناس: يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

أمَّا وحدة كلمة على أن يقعدوا ولا يعملون شيئاً؛ من أجل أن يبقوا أهل قرية، وتكون كلمتهم واحدة، ويدخلوا المسجد وتكون كلمتهم واحدة ولا يكون هناك أحد يعارض، ولو أدى إلى أنهم يسكتون لا يرفعون ولا كلمة ضد أعداء الله، معنى هذا - على ضوء هذه الآية - أن الله يمزق شملهم، يلقي بينهم عداوة وبغضاء.

هنا يفهم الإنسان بأنه دائماً لا يعرف كيف يمكن أن يعمل الله بالناس، لا يتصور: (أن كلمتنا واحدة فلا يأتي من يُفرِّقنا)! الذي يعزز وحدة كلمة الناس ووحدة صفهم هو عندما ينطلقون على أساس هُداه، ويعملون في سبيله، وإن كانوا أعداء مِن قبل، وإن كانوا أعداء ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف:١٦٨) هذا بالنسبة لتاريخهم الماضي، كانوا هم أيضاً مُفرَّقين في الشعوب، وكان يظهر بينهم مَن هم صالحون، ومَن هم كما قال في آية أخرى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ (الأعراف:١٦٩) لأن المسيرة ما زالت مسيرة دين، مثلما هو واقع الأمة الإسلامية، أليس القرآن ماشياً معنا من ذلك اليوم؟ قرآن، وتوجيهات من رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وتوجيهات ينسبونها إليه وهي غير صحيحة، وعبادات مُعيَّنة، أليست مسيرة تمشي مع الناس؟ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الأجيال السابقة من بني إسرائيل ﴿خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بهذه الطريقة: طريقة التلقي الذي يحصل بين الناس.

هناك فرق بين ﴿أَورَثْنَا الْكِتَابَ﴾ (فاطر:٣٢) من جهة الله هو يختص، ويُورِث شيئاً، وورثوا ممن قبلهم كتاباً، هنا أيضاً تظهر في الأخير مسؤولية فيها، تظهر مسؤولية عندما تكون أنت قد علِمت الكتاب، أيُّ واحد يعلَم القرآن، يَعلَمه، فهنا في القرآن أشياء واضحة، وهنا ذكر في هذه الأشياء الواضحة أنه لا يحصل تذكير بها.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ لا يزال الكتاب بينهم، لكن قد حصلت هناك في المسيرة أشياء أخرى، في مسيرتهم الثقافية قد صار هناك أطروحات أخرى، وتقديرات، وأقوال، ووجوه، وأشياء من هذه، فالكتاب يسير والعمل يقوم على أساس شيء آخر، ألم يصلوا إلى درجة ﴿لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران:٧٥)؟ يأكلون أموال الناس ويقولون: (أميون، ليس علينا منهم، لن نؤاخَذ) مسألة فقهية استنبطوها، لا أدري من أين جاؤوا بها؟!

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ هذه الحياة القريبة، من مظاهر هذه الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (الأعراف:١٦٩) هناك تأويلات إما مثل: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة:٨٠) أو مثل: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) أو (أن الإنسان إذا هو مجتنب أشياء فما عليه من أشياء أخرى)! وكم يأتي! (من قال لا إله إلاّ الله دخل الجنة وإن سرق وإن زنى) ألم تُقدَّم هكذا؟

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(الأعراف:١٦٩) مع أن الكتاب يُبيِّن، يحدد لهم الأشياء بأنه يظهر لهم من خلال، عندما يستعرضون ظاهر الكتاب يظهر لهم بأن ما لديهم من مسائل مُعيَّنة وأقوال مُعيَّنة استنبطوها أو ورثوها من السابقين نتيجة أهواء، أنها ضلال، يستطيعون أن يعرفوا أنها ضلال، لكن عادة تقدَّس الأشياء الأخرى، تحاط بهالة، وتربَط بعظماء، يصبح مَن هم أصحاب أهواء أو ضلوا نتيجة ضلال مَن قبلهم، فكانوا هم ضحية لمن قبلهم، تحاط بهالة من القدسية (لأن فلاناً هو الذي كتب هذا، وفلان مِن شرَّاح الكتاب الفلاني) وتكون القضية رهيبة جداً على الأمم.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وجاء مرة ثانية وأخذوه وقالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾! ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾(الأعراف:١٦٩) أنت عندما تقول: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أنت هنا صاحب عقيدة مبنية على رؤية مُعيَّنة: أنه سيغفر لك هذا، وإن كان خطأ في واقعه؛ لأن شيئاً مُعيَّناً هناك آخر، قد قالوا لك: هو سيكفره تلقائياً، شيء مُعيَّن قد أصبحتَ تعتقده أن تؤمن بهذا، فإذا كنتَ مؤمناً بهذا الشيء فالشيء الآخر الذي تقترفه وأنت تعرف أنه باطل لن تعود مؤاخذاً عليه، مثل حديث: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) سواء. أليس معنى هذا أنك سترتكب كبائر وأنت تعرف بأنها كبائر، لكن قد أصبحت تَعتبِر بأنها من التي ستغفر، أي: لن تؤاخذ عليها؛ لأنك ماذا؟ قد أصبحتَ مؤمناً بالله، وبمحمد، وبالقرآن، وباليوم الآخر، هكذا كعناوين.

فأول قضية هوجمت هنا: الرؤية الثقافية في الموضوع: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِم مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ألم يُسبِّق بهذه العبارة قبل قضية أن يقول: ما يأخذونه؟ هنا يذكر أنهم يأخذون باطلاً، يأكلون شيئاً حراماً، لكن هذا الحرام قد صار مفلسَفاً بأنهم لم يعودوا معاقبين عليه ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مبني على شيء محسوب على الدِّين، والدِّين محسوب على الله، يصبح هناك في الأخير افتراء على الله، قولاً بغير علم ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِم مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ألاّ تنسب إليه بأنه سيغفر، أو أنه سيعذب، أو أنه سيعمل كذا، أو كذا ﴿إِلاَّ الْحَقَّ﴾(الأعراف:١٦٩) ما كان من عنده هو.

ولهذا نقول: بأنه فعلاً يجب أن تكون معتقدات الناس من خلال القرآن الكريم، من خلال ما يقوله الله سبحانه وتعالى هو، عمَّا سيفعل، وعمَّا سيعمل، عن أشياء كثيرة، يكون العمدة في أخذ العقائد هو كتابه، عندما تأتي بعقيدة أخرى هي في الواقع مخالفة لكتابه، تصبح في الأخير بأنك ماذا؟ قلتَ على الله غير الحق، والله قد أخذ على من يعرفون كتابه ﴿أَن لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ لأن هذه هي المشكلة الكبيرة التي تجعل الإنسان في الأخير ينطلق في الباطل، ويأكل أموال الناس بالباطل، عندما يأتي بتبرير للمسألة ويربطها بالله وانتهى الموضوع.

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾(الأعراف:١٦٩) الكتاب درسوا ما فيه: تلوه، قرؤوه، وفي ظاهر الكتاب ما يؤكد على أن الإنسان يجب أن يكون منتبهاً، أن يكون دقيقاً، ألاّ يحصل من جانبه ما ينسبه إلى الله، فيكون قد قال على الله غير الحق.

كذلك فيما تتضمنه كتب الله ما يجعل الإنسان ينشد إليه وهو الدار الآخرة (الجنة) الجنة قدِّمت بالشكل الذي لا يجعلك تحاول أن تتأول كيف تأخذ شيئاً من ﴿عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ تأخذه حراماً، أليس معنى هذا بأن هذه الحياة ما زالت أمامك كبيرة جداً، وجشِع جداً، وترى أيَّ شيء يمكن أن تأخذه عظيماً جداً عندك، وهو نعيم كبير عندك، عندما تكون جاهلاً بالآخرة، إذا كنتَ مثلاً تعرف الآخرة، وتعرف ما ذكره الله عن الآخرة، عن الجنة، فلن تفكر في أن تعمل تبريرات لأخذ شيء من حقوق الآخرين أبداً، لن تفكر؛ لأنك ستكون منشداً إلى ما هو أعظم، أنت تريد من الله وترجو من الله ما هو أعظم وهي الدار الآخرة (الجنة).

فهذه أيضاً تُبيِّن أهمية ذكر (الجنة) في القرآن الكريم بشكل كبير، وأن الدار الآخرة أيضاً ذكرت في الكتب الإلهية السابقة، لكن في كتب (العهد القديم) تجد أن موضوع الآخرة لم يعد موجوداً، أبعدوه نهائياً بشكل عجيب، أي: واضح فيه التحريف، وهذا مثل ما يقول الله في القرآن: إنه مهيمن على كتبه السابقة، عندما تعرف السُّنن الإلهية من خلال القرآن، ستعرف بأنه بالتأكيد أن السُّنن الإلهية في التوراة كذلك؛ لأنه هنا يُقدِّم لنا قضية تربوية من الناحية الدِّينية، ومما يبعد الإنسان عن أن يفتري على الله من أجل أن يأخذ حقوق الآخرين هو ماذا؟ هو عندما يُقدَّم له موضوع الآخرة بشكل عظيم جداً، جانب النعيم، خلِّ عنك جانب العقاب هناك؛ ليكبر في ذهنك هذا الشيء فتطمع فيه هو، تطمع في الجنة، لا تعود تطمع في هذه الدنيا، قد أصبحت طامعاً فيما عند الله في الجنة التي هي نعيم على أرقى مستوى ونعيم دائم لا ينقطع، لن تفكر على الإطلاق في أن تفتري على الله وتأخذ حقوق الآخرين.

إذاً أليست هذه قضية تربوية؟ قضية تربوية إذا كنتَ تفترضها في هذه الأمة بنسبة مثلاً ١٠٠٪ افترضها في بني إسرائيل بنسبة ٢٠٠٪ لأن لديهم هُمْ حالة من الجشع أكثر، هم بحاجة إلى أن يُقدَّم لهم موضوع الجنة بشكل أكثر وأكبر؛ ليطمعوا فيها، ويَقِل طمعهم في مظاهر هذه الحياة، حتى لا يفتروا على الله ويأخذوا حقوق الآخرين.

إذاً فبالتأكيد أن التوراة والإنجيل تضمنت كلاماً كثيراً عن الدار الآخرة، ولكن نسفوها، مع أنهم لم يقدِّموا التوراة هي نفسها، يُبدون بعضاً ويُخفون كثيراً كما قال عنهم، وقدَّموا كتابات من عندهم، وأبعدوا اليوم الآخر، ولم يتكلموا بأيِّ كلام عن الدار الآخرة إلاّ شيئاً نادراً.

فلاحِظ مع مسيرة الكتاب، إذا كان من ورثوا الكتاب تلقوه، أليس معناه هنا: علماء، علماء، ومثقفون بعد مثقفين؟ لكن الشيء العملي لديهم، الشيء الذي يترسَّخ في ذهنيتهم هو الأهواء الأخرى: الشيء الذي قدِّم بشكل ثقافة هي بعيدة عن الكتاب، فمع أن الكتاب موجود معهم يُعطُون الأولوية للشيء الآخر، وبالطبع يُضفون على الشيء الآخر قدسية ويحسبونه على الدِّين، وينشدُّون إليه أكثر.

وهنا تجلى مظهر من مظاهر التأثير لضلال السابقين: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(الأعراف:١٦٩) لم يعد يحصل إلاّ تطويل لماذا؟ للتبريرات وللمسائل التي هي في الواقع من البداية كانت ضلالاً، تطويل لها وإضفاء شرعية عليها وتقديمها بشكل مسلَّمات، وإحاطتها بنوع من الفلسفة التي تجعلها قضية دينية وكأنها هي دين الله.

هنا تلاحِظ فعلاً كيف تعود المسألة بالناس في الأخير، عندما يتصفح الإنسان القرآن على هذا النحو يتجلى له أنه: لا يشكل ضمانات أشياء سابقة؛ لأن عمرها ألف سنة فقد صارت حقاً مركّزاً، قد تكون باطلاً مطولاً، وليس أن تقول: (تحولت من باطل إلى حق) بل باطل مع مرور الزمن تصبح ماذا؟ باطلاً يتفرع عليه باطل، ويصبح باطلاً يُقدَّم وكأنه حق ومُسلَّمة من المسلمات.

ارجع إلى سورة (الفاتحة) تعطِ الخلاصة، سورة (الفاتحة) هي أشبه شيء بلب القرآن وخلاصته، ترى التفاصيل داخل مثلاً ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾(الفاتحة:٦، ٧) ماذا تعني؟ هنا يقول لك: يخرج بعدهم أناس ولا يزال الكتاب يسير، وورثوا هذا الكتاب لكن تراهم كيف ثقافتهم بالشكل الذي يُسوِّغون لأنفسهم أن يأخذوا حراماً ويقولوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وقدَّموا افتراءات على الله وأشياء من هذه!

ماذا يعني في الأخير؟ لم يبقَ ضمانة إلاّ العودة إليه هو ﴿اهْدِنَا﴾ أنت ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾ مادام أنه يأتي في الأجيال هكذا أناس يرثون الكتاب وتحصل "غاغة"[1] مع الكتاب، وتحصل أشياء بعيدة عن الكتاب وتصبح هي السائدة، لا تشكّل ضمانة، بل تشكّل خوفاً وقلقاً، فالخلاصة هي ماذا؟ أن يتجه الإنسان إلى الله هو ليهديه، عندما يتجه إليه - مثلما قلنا سابقاً - ترجع إلى هذا الشيء وهو عادة يجعل أعلاماً لدينه ومعالم لدينه. كتاب الله أليس واضحاً؟ نرجع إليه، وننظر كيف الهدى فيه، وكيف قُدِّم، وكيف نهتدي به، وفي نفس الوقت تسأله أن يهديك دائماً دائماً.

عندما يقول البعض: (هل يمكن أن تتصور أن العلماء جيلاً بعد جيل على مدى ألف سنة أن يكون هناك شيء هو ضلال قد مشى فيهم إلى الآن ولم نعرفه إلاّ الآن؟!) أليس البعض يقول هكذا؟ أليس القرآن يكشف بأن هذا الشيء ممكن: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿اهْدِنَا﴾ ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:٧٧) ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(التوبة:٣٤) ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيهِمْ﴾(البقرة:١٦٧) ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِم مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(الأعراف:١٦٩) ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(الأعراف:١٧٠) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾(الأنفال:٤١)

هل كان أولئك يمتلكون صلاحاً للناس؟ أبداً، مَن يمتلكون صلاحاً للناس ويمكن أن يكونوا مصلحين للناس هم الذين يمسِّكون بالكتاب؛ ولهذا قال بعد: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾. أولئك ورثوا الكتاب: الكتاب معهم

---

(١) غاغة: من اللهجة العامية، وتعني هنا: التلاعب والفوضى.

في كل بيت أو في كل كنيسة، لكن هناك فارق بين أن يكون الكتاب موجوداً أو أن يكون هناك تمسُّك بالكتاب ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ هؤلاء يُعتبَرون مصلحين ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف:١٧٠).

الثقافة الباطلة خطيرة جداً؛ لهذا فالشيطان ذكي يعرف كيف يعمل، قلنا سابقاً بأنه: لعداوته الشديدة للناس لن يحاول أن يكسر سيارتك، أو يقطف (قاتك) وهو يستطيع أن يرسل جناً ليقطفوا (قاتك) فلا يأتي الصباح ولديك أيُّ شيء، أو يكسروا سيارتك، ويحرقوا (حطبك) ويفلّطوا (بُنّك)[1] ويحرقوا (دكانك) أليس يستطيع؟ لكنه يعرف أن هذه أشياء هامشية، هو يعرف كيف يضربك ضربة رهيبة، يضربك في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة عن طريق الضلال، الضلال ما هو؟ قضية رؤى، مفاهيم، ثقافة، هذه هي الضربة الشديدة.

لهذا نقول: إنه بالنسبة للعامة من الناس، أنه ظهر في هذه المرحلة شيء غريب، أن الأفضل لهم هو من يدعوهم إلى أن يتحركوا على أساس القرآن، أفضل لهم هم، الآخر عندما تأتي أنت تبحث عن العالِم الذي لا يتحرك ولا يقول شيئاً ولا يعمل شيئاً، ما الذي يمكن أن يقدِّم لك في يوم من الأيام؟ لا شيء، يأتي الأمريكيون يقتحمون عليك بيتك، وهو كان عمره يحاول أن يثبطك، و (ليس هناك مشكلة، وعسى الله أن يعمل كذا) وعندما يدخل الأمريكيون البلاد يأخذ أدواته ويسافر يبحث له عن أيِّ بلد، هل سيعمل لك شيئاً؟!

الناس بحاجة إلى من يوجههم أن يبنوا أنفسهم على أساس القرآن، يشكّلون في المقدمة حماية لأنفسهم يكونون أمة قادرة على أن تواجه عدوها فلا تُظلَم. أين الأفضل: الذين يمسِّكون بالكتاب، أو الذين ورثوا الكتاب ولديهم أشياء أخرى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (الأعراف:١٦٩)؟ والظلم في الأخير يقع بشكل كبير على مَن؟ على العامة من الناس، كثير من المسؤولين سيهرب في الأخير خارج البلاد، أين ذهب العشرات أو المئات من نظام (صدام) في العراق؟ أين ذهبوا؟ المسؤولون الكبار رحلوا، يكونون مجهِّزين لأنفسهم في كل بلاد (في الخارج) ويترك الناس.

كذلك كثير من العلماء الذين لا يحركون الناس على أساس الكتاب يكون قد جهَّز نفسه إذا حصل شيء يهرب ويترك الناس يواجهون مصيرهم بأنفسهم، هو غير مرتبط بأموال، غير مرتبط بأشياء، كان يعيش على أموال عينية تأتي له مباشرة، والناس هم الذين هم مرتبطون ببلادهم، أموالهم، بيوتهم، مزارعهم، هم أكثر التصاقاً بالأرض، ثم من بعد سيقولون مثل العراقيين، أليسوا يقولون: (نعم للحوزة)؟! ما حاوزهم[2] وأوصلهم إلى هذه الوضعية إلاّ الحوزة، وثقافة الحوزة التي مروا في مراحل كان باستطاعتهم قبل أن يقوم (البعث) أن يقيموا في العراق دولة عادلة، لكن معهم مذاهب أخرى ﴿أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ (الشورى:١٤) أمَّا الكتاب فهو موجود، لكن معهم مذاهب أخرى، ومستلمين ملايين من الأخماس، وإذا أشياعهم وأتباعهم في الأخير مساكين يقتحمون عليهم البيوت، ولا استطاعوا أن يعملوا لهم شيئاً! ما الذي أوصلهم إلى هذه الحالة؟ ثقافة تفسد في الأرض، وضحية الفساد هم الأمة، أموالهم من البداية وأموالهم وأنفسهم في الأخير، خلِّ عنك في الآخرة.

ولهذا سمَّى الله فقط ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ مصلحين، كلمة (مصلحين) تقابل كلمة (مفسدين) أين موقع الإصلاح والفساد؟ مَن؟ أليست الأمة، في هذه الأرض، أو في الجو، أو الصخرات؟! الناس هم ميدان الفساد أو الإصلاح، الإفساد ضحيته الناس، والإصلاح إيجابياته كلها للناس.

يُبيِّن هنا أنه بالنسبة للمصلحين أنفسهم - هؤلاء الذين ورثوا الكتاب - لماذا يعدلون إلى تمحُّلات وتأويلات ليأخذوا عرَض هذا الأدنى، ثم أيضاً يحسبونه على الدِّين؟! والله يذكر في كتبه أنه لا يضيع أجر المصلحين؛ لينطلقوا في الإصلاح، ولن يحتاجوا إلى أن يتمحلوا فيأخذوا حقوق الآخرين، الله لا يضيع أجر المصلحين، وهو يعلم بحاجات المصلحين، أليس هو يعلم بحاجات الناس جميعاً؟ بمعنى أنه في كتبه لا يذكر المصلحين بأنهم سيتحركون وفي الأخير سيموتون جوعاً، لا يرى أين ينام ولا يملك من الدنيا شيئاً، لا تكون بهذا الشكل، الله لا يضيع أجر المصلحين، وليس الناس المصلحون سواء.

والإصلاح كما نقول في أكثر مما قد مررنا به من الآيات: إنها أساساً قضية أمة، لكن مفتاح الإصلاح أو الإفساد مَن هم؟ الكبار، كبار الناس، من يحملون ثقافة هذا الدِّين الذي يدين به الناس، إمَّا أن يأتي الإصلاح أو الإفساد من عندهم، وهم من يتحكمون في شؤون الناس.

---

(١) يُفَلِّطوا بنِّك: ينهبون كل ما في أشجار البنُ من محصول.

(٢) حَاوَزَهم: ضَيَّقَ عليهم.

يأتي هنا موضوع: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾(الأعراف:١٧٠) لأن الصلاة هامة في التذكير بالله، متمسكون بالكتاب، ودائمو التذكر لله، قضية ضرورية، تجد الصلاة في كل مكان، تجدها مع المواريث، مع أشياء من هذه؛ لتحافظ على حدود الله، وتجدها في القضايا الهامة، مثلاً قضايا أخرى عملية، غير هذه التي تُعتبَر حدوداً، يأتي بالصلاة عندما تكون القضية فعلاً متوقفة على أن يكون الإنسان خائفاً من الله وراجياً لله؛ لأن هذا لا يمكن إلاّ إذا كان عارفاً لله ومتذكراً وذاكراً لله، الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤) الغاية من الصلاة ولب الصلاة هو ذكر الله، وترسيخ ذكره في النفوس.

فالصلاة عندما يصلي المصلحون تختلف عن صلاة الآخرين، ولو أنهم جميعاً يصلون، الآخرون هم يصلون، وقد صاروا يعتقدون أن الصلاة هي وسيلة لتكفير الأشياء الأخرى ((الصلوات الخمس كفارات لِمَا بينهن)) يصلي من أجل أن يكفر تلك الأشياء، ويصلي على أساس أنه سيحصل على حسنات، يكفر تلك السيئات، الصلاة هنا ذِكر لله، يترسخ في أنفسهم ذِكر الله، وذِكر الله قضية أساسية جداً في نفوس المصلحين، الناسون لله لا يكونون مصلحين لأنفسهم ناهيك عن أن يُصلِحوا في أرض الله ويصلحوا في عباد الله. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾(الأعراف:١٧٠) يقول: ﴿وَأَقَامُوا﴾ أقاموا، دائماً تؤديها قيِّمة، وتفهم الصلاة: الغاية منها وأهميتها.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾(الأعراف:١٧١) هذه آية من الآيات القاهرة، من الآيات العجيبة، الجبل ينقلع من موقعه ويصعد فوقهم، تهديد. ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم﴾ كلمة ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم﴾ تأتي عن طريق نبي من أنبيائه معهم ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ ما هو الذي آتاهم؟ أليس كتابه؟ كتابه.

عندما تأتي هذه العبارة مثلاً في زمن قد يكون زمناً متأخراً عن نزول الكتاب، معنى هذا بأن تلك الأشياء لا قيمة لها، بل هي إشكالية، يردهم إلى الكتاب ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم﴾ وليس ما آتاكم الآخرون، أليس هنا يقول ﴿مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾؟ لو كان الشيء الذي هم عليه صحيحاً لَمَا حصل هذا الشيء: ينتق الجبل فوقهم ويقول لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ لأنه لو كان ما لديهم من ثقافة - وقدِّمت ثقافة دينية صاغها الكبار منهم - صحيحة لَمَا كان هناك موجب لهذا: أن يهددهم هذا التهديد، وأن يقال لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ وأن المسألة تؤدي إلى أن الناس يتركون ما آتاهم الله، لا يمكن أن تأخذ ما آتاك الله بقوة وأنت ما زلت متشبثاً بما آتاك الآخرون من ثقافة مليئة بالضلال والأهواء، أبداً.

﴿خُذُوا﴾ أليس معناه أنهم قد تَركوا؟ وما زال الكتاب ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾(الأعراف:١٦٩) يمكن أن يكون الكتاب في جيبك وأنت تارك له، وأنت بعيد عنه. ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأعراف:١٧١) أمَّا الأشياء الأخرى فسوف تتورطون وتهلكون، لا تمثل وقاية على الإطلاق.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَومَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٢، ١٧٣) مما نستفيد من هذه الآية أنه فيما يتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى أنها قضية أساسية لدرجة أن الله يجعلها فطرة في الناس، أي: ليس فقط بأنهم يعرفون بأن هناك إلهاً اسمه (الله) بل يعرفون (الله) أنه ربهم، فطرة لديهم فُطِروا عليها، غريزة الله أعلم متى أودعها الله، عندما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنت عندما يأتي لك مولود هو أساساً من صُلبك، خرج من بين الصلب والترائب، صلب الإنسان هو أصله أصل هيكله، ابنك هو من أصلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ إشهاد، وليس فقط أنْ يقول لهم: أنا ربكم، بل بطريقة هم يُقِرُّون هم بأنه ربهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ هذه الشهادة قد تكون هي ماذا؟ موضوع الغريزة التي فطر الله الناس عليها، قد تكون أودِعَت في الإنسان في أيِّ مرحلة من مراحل مسيرته إلى الولادة، وهو ما زال في ظهر أبيه متجهاً إلى الولادة.

لأنها قضية أساسية، وقلنا سابقاً: بأنه لو أن المسألة لم تكن على هذا النحو لكان هناك إشكالية كبيرة جداً في موضوع الدِّين: لَمَا كان أحد سيعرف من هو الذي يدعو الأنبياءُ الناسَ إليه، يأتي نبي من الأنبياء رسول لا يعرفون من الذي أرسله؟ سيقولون: (رسول مِن مَن؟) يقول: مِن الله، سيقولون: (الله هذا ليس له علاقة بنا، الله لا ندري هو إله مَن؟!) إن الناس هنا مفطورون ومودع فيهم (مغروز فيهم) الإقرار من جهة أنفسهم، ومسيطر على نفوسهم إقرار بأن الله هو ربهم؛ ولهذا جاء في آية أخرى يذكر عن جواب الأمم بالنسبة لأنبيائهم:

﴿لَو شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾(فصلت:١٤) ربنا! يقولون: ربُّنا! مَن رب السموات والأرض؟ مَن رب كذا؟ يقولون: الله الله، أليس في القرآن يُبيِّن أنها مسألة ثابتة لديهم: أن الله هو ربنا، أولئك الذين هم مشركون، أولئك الذين هم في بلدان قد نسميهم - مثلاً - بدائيين؟

نحن قلنا: إنه من الغريب عندما يأتي رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) محمد عربي وهو رسول للكل، يدعو إلى الله بهذه العبارة: اسم (الله) الفارسي الذي لا يعرف هذه اللغة، وكلمة (الله) يقابلها بعبارة أخرى، الرومي الذي كان - مثلاً - في البلاد التي كانوا يسمونها الروم في ذلك الزمن أيضاً لغتهم أخرى واسم (الله) لديهم بعبارة أخرى، يعرف الفارسي، ويعرف الرومي، ويعرف الحبشي، ويعرف صاحب أيِّ لغة كان أن محمداً عندما يدعو إلى الله فإنه يدعو إلى من هم في أنفسهم يشهدون بأنه إلههم ورب السموات والأرض، هم لا يعتبرون أنه يدعو إلى إله آخر، إله عربي، أي: أنه مغروز في الذهنية بأكثر مما يعنيه اسمه في نفوس الناس، بحيث أن اختلاف اللهجة لم يؤدِ إلى اختلاف الشيء المودع في نفوس الناس، قد يكون اسم (الله) عند الفارسيين بعبارة أخرى: (خُدَايا) مثلاً، وفي نفس الوقت في ذهنيته سواء هو والعربي، وما لديه مفطور في هذا الموضوع هو والعربي، هو والرومي، هو والحبشي سواء داخلهم: الله هو رب السموات والأرض، هو ربنا.

لهذا أمكن أن تُقبَل الدعوة إلى الله، ورسالة الله أن تُقبَل عند الأمم المختلفة اللهجات واللغات، وهم يعرفون أنه يدعو إلى شيء واحد. لو لم تكن هذه القضية موجودة لَمَا أمكن. تجد محمداً يدعو إلى الله فيعتقد الفارسي بأن الله إله آخر (إله عربي هناك) وهناك يعتبرون بأنه يدعو إلى إله عربي. هم يعرفون أنه عندما يدعو هنا إلى الله فإنه يدعو إلى الله الذي هم مفطورون على معرفته أنه - ولو كان اسمه عندهم اسماً آخر - أنه ربهم، وهو رب السموات والأرض.

هذه القضية أساسية في إمكانية انتشار الرسالة، وقضية أساسية في تَقبُّل هدى الله، إن القضية الأساسية يجعلها غريزة في الإنسان: معرفة الله أنه ربهم؛ ولهذا عمل لنا استبياناً في القرآن، من أيام نوح (عليه السلام) وكلهم يقول الأنبياء للآخرين من أممهم: (اعبدوا الله) لا يوجد أيُّ جدال حول موضوع الله، إنما الجدال حول موضوع توحيده، وحدانيته، ألوهيته، بأنه وحده الإله، عندهم هو إله وهو إله من في السموات والأرض، لكن أيضاً عندهم ذلك الحَجَر إله، وتلك الحَجَر الأخرى إله، وهكذا.

يأتي تفسير لهذه بشكل آخر على أساس يعني ماذا؟ المعرفة الاستدلالية، أي: أنه أودع هنا من المخلوقات ما يُستدَل بها عليه، فتجعل الإنسان يشهد بأن الله ربه، لكن كيفما قالوا، سواء كانت المسألة فطرية، أو معرفة ضرورية، أو استدلالية، هو قدَّم أن المسألة مضمونة، موجودة، النقطة التي أشغلونا عليها قروناً، وأشغلوا الناس قروناً في (علم الكلام) الاستدلال لإثبات وجود (الله) هنا يقول: هي قضية قد حصلت، أن الله قد أشهد بني آدم سواء أردت أن تسميها ضرورية، أو تسميها معرفة استدلالية، أو تسميها غريزة، لم يبقَ حاجة لعلم الكلام نهائياً، هي قضية مودعة في النفوس بأيِّ طريقة تسميها أنت هي موجودة هنا: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

وأنها قضية فيما يتعلق بالأجيال المتعاقبة التي قال فيما بعد: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: من أجل ألاّ تقولوا يوم القيامة عندما تُسألون عن: لماذا كنتم مشركين بالله؟ تقولون: لم نكن نعرف شيئاً، وجدنا آباءنا مشركين، ومشينا على ما كانوا عليه، أنهم في الواقع هم يشهدون في أنفسهم بـ(الله) أنه ربهم، وقدَّم استبياناً كاملاً في هذه القضية؛ لأنها قضية معروفة عند المشركين فعلاً.

إذاً فالمشرك يعرف أنه مشرك بالله، والمشرك يعرف بأن ربه هو الله، وإنما الآلهة الأخرى كما يقول: ﴿أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾(الأعراف:٧١) أشياء اتخذوها، أشياء جعلوها هم، حياتهم ليست مرتبطة بها؛ لأن الربوبية هنا في الأرض بمعنى: أن الإنسان في حاجياته، في مسيرة حياته، في أموره مرتبط بالله؛ ولهذا كان مُقِراً بأن إنزال المطر من الله، إنبات الشجر من الله، الشمس والقمر والنجوم تسييرها من الله، خالق السموات وخالق الأرض وما فيها هو الله، فالإنسان مقر بأن الله هو ربه، ثم عندما يجعل الآخرين أرباباً ترى حياته ليست مرتبطة بهم على الإطلاق، ينصرون هم هذه الآلهة، يحاول هو أن يُبَخر لها، يحاول هو أن يمسح الغبار عنها، وهي لا تنصرهم، لا تعطيهم، لا تنفعهم ولا تضرهم بشيء نهائياً.

إذاً فالمسألة واضحة بأن الله أشهد الإنسان على نفسه، فهو يعرف أن الله ليس فقط إلهاً موجوداً، يعرف الله وأنه ربه، زيادة على ما يقول المتكلمون، وهم يَشغلون الناس من أجل أن تعرف أن هناك (الله) نقول

لهم: القضية حاصلة بأوسع مما قلتم، أن البشر يعرفون الله إلهاً، ويعرفون أيضاً أنه ربهم، وأنه رب السموات والأرض وما فيها، وخالق السموات والأرض وكل ما فيها، لم يبقَ حاجة لعلم الكلام نهائياً.

﴿أَن تَقُولُوا يَومَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢) لم نكن نعرف شيئاً عنك ﴿أَو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٣) ما هو ذنبنا؟ نحن نشأنا ووجدنا أصناماً يعبدها آباؤنا فعبدناهم، لا نعرف شيئاً آخر غير هذا، لا نعرف بوجودك أنت، وأنك ستميتنا وتبعثنا، وتحصل هذه الأشياء الرهيبة، أليست هذه ستكون حجة للناس؟

إن الله غرز في الفطرة حتى في مراحل فترة الرسل، تقيس على هذه المسألة بأن الأشياء الأساسية الله يحفظها، الأشياء الأساسية، وإن كانت إلى درجة أن يجعلها فطرة في نفوس عباده، في نفوس الناس.

هنا الكتاب يبقى، ألم يقل بأن الكتاب يبقى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾(الشورى:١٤)؟ يبقى الكتاب إلى درجة أن يكون أولئك على أقل تقدير لديهم معلومات بأن هناك كتاباً من جهة الله، باستطاعتهم إذا كان لديهم أدنى تأمل واهتمام وخوف، أن يقولوا: أعطونا كتاب الله، نريد أن نعرف كتاب الله، وأن نعرف ما فيه، اتركونا من أشياء أخرى.

يبقى معروفاً داخل بني إسرائيل: أن هناك كتاباً، معروف لديهم - حتى لو قد أضاعه أحبارهم - أن هناك كتاباً، إذاً لماذا لا تعرِّفونا على هذا الكتاب، ونعرف أصله هو؟ وأن الكتاب الإلهي في أصله لا يستطيعون أن يزيفوا فيه، الكتاب نفسه لا يستطيعون، يخافون من هذه، هي قضية خطيرة، إنما يتركونه هناك ويأخذون منه، ويزيدون وينقّصون مِن عندهم هنا، يقدِّمون كتابات أخرى يقولون: هي من عند الله وما هي من عند الله.

نأخذ من هذا بشكل عام: أنه تأتي أشياء في علم الله، في المراحل التي نعتبرها فترة - عندما يقول الواحد: كيف الناس - على مدى مائتي سنة أو على مدى ثلاثمائة سنة أو ألف سنة؟! قل: لا نستطيع أن نعرف نحن ما الذي قُدِّم لهم، لكن يبدو أنه فعلاً والله يقول: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾(النساء:١٦٥) أن هناك شيئاً بطريقته الخاصة، لا نعرف، يُقدِّمها لهم، شيء ظاهر أمامنا أن الكتاب موجود لديهم، أن القرآن موجود لديهم، أشبه شيء بغريزة داخل الأمة، كما أن معرفة الله إلهاً رباً للناس مغروزة داخل الإنسان.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الأعراف:١٧٤) نفصل الآيات لعلهم يرجعون فيعرفون إلى أين يرجعون، هناك أسس تبقى إنما هم يتمادون، وهذا من الشيء الذي يُعتبَر غريباً أنه عندما نقول: نعود إلى كتاب الله، وأن الله هو حي قيوم، كتابه هو ليس منفصلاً عن قيوميته، ونسأل منه الهداية، ونرجع إلى طريق الهداية التي رسمها هو، وكلنا متفقون عليها، نترك الأشياء الأخرى، أو على الأقل الذي لا يزال صحيحاً فيها لا بأس اتركه هناك، لكن الصحيح هنا بنسبة ١٠٠٪ موجود داخل القرآن.

أليس الله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؟ لا يحصل رجوع في الواقع، يقولون: (لكن كيف؟ لا يمكن، والذين قبلنا منذ ألف سنة، وهذه الكتب التي ألّفها فلان وفلان وفلان من أئمتنا، وكذا... أي: نتركهم؟!) نقول: في هذه الآيات ما يعطي عبرة كاملة، آيات مفصلات من قوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ثم يقول في قضية أن الله لا يُبقي شيئاً لئلا يكون للناس عليه حجة يُودع معرفته في النفوس، وفي نفس الوقت بالنسبة للمسلمين يحفظ كتابه موجوداً بين المسلمين جيلاً بعد جيل. أكثر الناس معرفة للمسألة هم مَن عادة؟ العلماء، أليسوا هم من تكون هذه القضية مقبولة لديهم؟

نرجع إلى القرآن، وأن هذه هي السُّنة الإلهية في الهداية، لا ترجع إلى موضوع أجيال أجيال، ارجع إلى القرآن، وسترى أنك - عندما ترجع إلى الأجيال بعدما تكون قد رجعت إلى القرآن - تستطيع وفق الرؤية التي يعطيها القرآن أن تعرف الذي كان يمثل هدى والذي كان يمثل ضلالاً من داخل السلف الصالح، عندنا أو عند الآخرين.

في الأخير يتمسكون بهذا، ولا يحصل رجوع؛ وهذا هو الذي يؤدي إلى أن يبقى الضلال جيلاً بعد جيل. إن من يحمل المسؤولية الكبيرة جداً جداً في هذه القضية هم من يحملون العلم، إضافة إلى من يتحكمون في شؤون الأمة من سلاطين وزعماء، يتركون الضلال يمشي جيلاً بعد جيل، وكلما جاء أحد يُنبِّه تمسكوا بالضلال.

هنا يقول لك: إنه كيف يجب أن يكون التنبيه، أن يعرف الإنسان بأن هناك أسساً تبقى قائمة، فبالنسبة للإنسان هناك فطرة فيما يتعلق بمعرفة الله (المعرفة الجُمْلية) كل ما يقدَّم من بعد هو توسع في موضوع معرفة الله، نفهم ماذا يعني أنه الإله؟ ماذا يعني أنه ملكنا؟ ماذا يعني أنه رحيم؟ ماذا يعني أنه...؟ مظاهر رحمته، قدرته، حكمته، علمه...إلخ؟ هذا ميدان واسع، والحياة كلها مفروشة بهذه الدلائل التي تعطي هذه

المعرفة، والتي أساسها مغروز في النفوس، ترجع إلى الطريقة الأخرى أيضاً هناك أسس قائمة، أبرز أساس لدينا الآن داخل هذه الأمة هو القرآن، أليس كذلك؟

نعمة كبيرة أنه لا يزال موجوداً، لم يتعرض لِمَا تعرضت له التوراة من إخفاء كثير منه، ولم يتعرض لتحريف، نصه لا يزال موجوداً، وَنُسَخُه لا تزال متوفرة وكثيرة جداً، هذا حجة، إذاً فليس بالإمكان ﴿أَن تَقُولُوا يَومَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢) أي: لم يبقَ عذر، أودع في أنفسكم معرفته: أنه ربكم، وستجدون أنتم في مسيرتكم في الحياة بأنه فعلاً لا تلتجئون إلاّ إليه في كل حالاتكم، بما فيها الحالات الشديدة، ألم يذكر كيف كانوا يدعون في البحر إذا مسهم ضر؟

﴿أَن تَقُولُوا يَومَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ﴾(الأعراف:١٧٢، ١٧٣) في الجانب الآخر أن تقولوا يوم القيامة: لم يكن لدينا أيُّ شيء نرجع إليه، ولا عرفنا إلى أين نذهب، أو آباؤنا ساروا على كذا ونحن سِرْنا بعدهم، لأن الأساس قائم الذي يُبيِّن لكم المسيرة الصحيحة والخاطئة لآبائكم، والقرآن يُبيِّن لكم أنتم كيف تسيرون، هنا يُبيِّن فعلاً بأن وجود القرآن يقطع الأعذار كلها، ويهيئ الله أن ينتشر القرآن بشكل كبير في أوساط الناس.

إذاً فعندما يأتي الإنسان يقول لك: (لكن، ولكن، وكيف؟ والذين قد ساروا وعلى مدى ألف سنة) وأشياء من هذه، أليس بعيداً عن هذا المنطق؟ أنه هنا جعل القرآن أشبه شيء بالغريزة، غريزة معرفته، انظر ماذا قال في موضوع الشرك؛ لتعرف ما يمكن أن يقال لك في موضوع الضلال مع وجود القرآن بين الناس، هو منطق يؤدي إلى أن يبقى الناس على ما يهلكهم، منطق من يقول لك: (لكن الأولين قد ساروا على كذا، وكيف؟ وكيف؟ ولا يمكن، والكتاب الفلاني الذي ألفه هو من أئمتنا، وأشياء من هذه) قل: لدينا هذا الكتاب للحي القيوم نقرؤه، ليس بمعزل عن قيومية الله سبحانه وتعالى، وهو بالشكل الذي يشكّل ضمانة فعلاً، نثق به بأنه من عند الله، ونصوصه مضمونة لم تتعرض لأيِّ تحريف.

بمعنى أن المشركين لا يكون لديهم أيُّ عذر مع وجود القرآن، أو عندما يتشبثون بعدما تأتي دعوة رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أو من كان قبله من الأنبياء، ليس بإمكانهم يوم القيامة أن يقولوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٣) لن تكون مقبولة، كذلك غير مقبول داخل هذه الأمة - على ضوء هذه الآية - أن يقولوا: (هم ضلوا مِن قبلنا، ونحن كنا نظن أنهم سلف صالح، أفتهلكنا بما فعل الضالون؟!) لأن القرآن موجود لديهم، منتشر كتابة ومنتشر صوتاً، أليس منتشراً في العالم صوتاً أيضاً بواسطة (الكاسيتات) وغيرها من الوسائل؟

﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَينَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾(الأعراف:١٧٥) هذا نموذج، أو (مثال خاص) مثال شخصي، حتى عندما يقول لنا سابقاً: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾(الأعراف:١٦٩) قد يقول: ماذا يعني ﴿خَلْفٌ﴾؟ لا ندري من هو الذي قد يكون؟! يُقدِّم لك بأنها قد وقعت فعلاً على مستوى ﴿خَلْفٌ﴾ ووقعت على المستوى الشخصي، شخص آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أليس هو هنا في الأخير يلحظ موضوع الآخرين، عادة الغاوين يكونون مغوين لآخرين، أنه أمكن أن يكون من الغاوين مع أن لديه من آيات الله: ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَينَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾(الأعراف:١٧٥) خرج منها بسبب ماذا؟ بسبب إخلاده إلى الأرض.

﴿وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾(الأعراف:١٧٦) (إلى الأسفل). هذه العبارة راقية جداً، لا يستطيع أحد أن يأتي لها بتفسير أدق منها ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: اتجه اتجاهاً بانقطاع، شغوفاً بالأرض، لم يتجه إلى الله؛ لأن هدى الله بالشكل الذي يرفع الإنسان إلى الله؛ لأن الله هو الذي يجعل السماء والأرض تخلد إلى الناس، متى ما اتجهوا إليه يجعل السماء والأرض تخلد إليهم هي، يفتح بركاتها ﴿وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(الأعراف:٩٦).

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ نعوذ بالله، أي: لم يتمسك بما آتاه الله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾(الأعراف:١٧٦) هنا أيضاً تبرز لك هذه الصورة التي قد تبدو نتيجة دعاية إعلامية تقدِّس أشخاصاً هم في الواقع منسلخون عن آيات الله، وهم في الواقع ممن ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾(الأعراف:١٦٩) أن الشيء الظاهر في الموضوع دائماً تحاط بهالة من التقديس لأولئك (النظرة إليهم كعظماء) هنا يُبيِّن لك، لا.

إن هناك بالتأكيد ﴿خَلْفٌ﴾ يحصلون على هذا النحو، هذه النوعية هم عادة ضرب لهم مثلاً سيئاً، هذا المثل السيئ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ وفي السورة الأخرى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

﴿أَسْفَارًا﴾(الجمعة:٥) أليس هنا يَضرِب أيَّ قيمة في ذهنيتك؟ بمعنى أنه يجب أن يقوم (تقديسك، تعظيمك) على أساس رؤية من كتب الله، فبالنسبة لنا كمسلمين على أساس رؤية من داخل القرآن مَن هم؟ مَن الذي نعظمه؟ لئلا يصبح التعظيم في حد ذاته يشكّل عائقاً.

لنفهم بأنه ليس كل مَن ورث كتاباً فهو عظيم، قد يكون هناك من يرث كتاباً وفي نفس الوقت يكون له هذا المثل السيئ: ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أو ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ لنعرف مَن هم الذين نعظمهم، ومَن هم الذين لا يبقى لهم في نفوسنا أيُّ تعظيم تبعاً لهذا العنوان: عنوان كتاب، عنوان عِلم.

﴿وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾(الأعراف:١٧٦) لاحِظ أليس الإنسان بحاجة إلى إيمان موسى عليه السلام؟ إيمان الانقطاع إلى الله، لا تركن على نفسك أبداً ولو كان عندك علوم كم ما عندك، هنا يقول لك: ﴿آتَينَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، ﴿وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ لكن هو حصل عنده خلل، لا تحصل هذه المسألة اعتباطية من جهة الله أبداً ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وقد أصبح راكناً على تلك الطريقة التي تحصل عادة: تلك التبريرات، ويرى أنه فلان، وربما قد صار هو يسيِّر الباري.

هذا حصل عند اليهود، حصلت لديهم فكرة: أنهم قد صاروا يسيِّرون الباري، ويسير هو على ما تريده أنفسهم، وهو معهم، ومن ضمنهم. ونزلت أيضاً في داخل المسلمين: (أن مراد الله تابع لمراد المجتهد، وليس مراد المجتهد تابعاً لمراد الله، المجتهد ينظر وما غلب في ظنه فهو مراد الله، فمراد الله تابع لمراد المجتهد)! هذه عبارة من أسوأ العبارات، من أسوأ العبارات.

لا نعرف هنا الحالة مثلما قلنا سابقاً حول قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾(الجمعة:٥) المثل هنا، أي: عندما تعرف كثيراً عن طبيعة ووضعية هذا الحيوان الذي ضرب به مثل تجد مقارنة واسعة بين المشبَّه والمشبَّه به، أنه فعلاً في آية عندما قال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ نحن نعرف أشياء كثيرة بالنسبة للحمار أكثر من معرفتنا بالنسبة للكلب في موضوع أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، هل معناه بأنه عندما أصبح مُخلِداً إلى الأرض أصبحت له وضعية المخلِد، أي: المنقطع إليها: يلهث وراءها، سواء حصل على شيء أو لم يحصل على شيء؟ إن حصل على شيء فهو يلهث على الكثير، وإن لم يحصل على شيء فهو يلهث أنه لماذا لم يحصل! هنا ماذا يعني؟ يعني كأن الباري يدسه إلى الأرض أكثر.

في موضوع ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ لا ندري كيف نفسية الكلب في هذه، لو يأتي مثلاً محاولة دراسة، أو أحد يحظى بأيِّ بحث يراه عن الموضوع، في هذا الزمن تحصل دراسة للحيوانات، للأشياء التي شبِّه بها في القرآن في مختلف الأشياء، أن نعرف كثيراً عن وضعيتها وطبيعتها في الحياة، ترى أن هناك أشياء كثيرة من مقومات التشابه ما بين المشبَّه والمشبَّه به؛ لأنه في صورته مَثلٌ مخزٍ - نعوذ بالله - مَثلٌ سيئ.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(الأعراف:١٧٦) نعوذ بالله، هذا المثل يقولون: إن هذه حصلت لواحد من بني إسرائيل يسمونه: (بلعام بن باعوراء) وله علاقة بموضوع: أنك أحياناً لا تقل - ودائماً نكرر هذه مع أنها قضية يكون فيها نوع من الإحراجات إلاّ أنها قضية ضرورية وهامة: أن الإنسان قد يكون متشبثاً عن طريق تعظيم، فيكون لديه - كيف يمكن هؤلاء العظماء؟! لأن قضية (عظماء) هي قُدِّمت إليهم على أساس صورة مُعيَّنة، أنه في الواقع قد يكون بعض من أنت منشدّ إليهم على هذا النحو، ممن ثقافتهم ضالة، ممن هم منسلخون في الواقع عن آيات الله، ممن لديهم تحريف كثير، يكون في واقعه مثلما مثّل هناك ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ أو ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ لتعرف بأنك قد تكون متمسكاً بتلك النوعية التي تراها عظيمة وهي أشبه شيء بهذه الحيوانات السيئة.

أسوأ مَثل ضُرِب لمن هم في الواقع علماء يحملون ثقافة باطلة، فإمَّا أن يكون - مثلاً - متعمداً، فيه نوع من التعمد مثل هذا، أو نوع من الضلال، يوجد فارق، الكلب هو أذكى من الحمار، وفي النفسية عند الناس أحط من الحمار، أليس هكذا؟ أي: أن الضالين قد تعتبرهم عظماء، وهو في الواقع لا يخلو إمَّا أن يكون في قائمة الحمير، أو قائمة الكلاب! هذه قضية قرآنية؛ لأنه فعلاً الهالة التي تحيط بأشخاص مُعيَّنين - مثلما قلنا بالأمس - أن الضلال عادة يأتي من عند أشخاص - كذلك تحدثنا عن هذه - وفي نفس الوقت يحاطون بهالة من التعظيم تشكّل في حد ذاتها عائقاً كبيراً، فيصبحون هم أساس المشكلة هم، وتعظيمهم هو العائق الكبير عن حل المشكلة التي نريد الخروج منها (مصْيَدة) لا يستطيع أحد أن يخرج منها إلاّ إذا كان لا يزال هناك توفيق إلهي.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٦) القضية تحتاج إلى

تفكير، وعندما يقدَّم ما هو خلاف السائد بين الناس ويكون السائد باطلاً قد أضفي عليه هالة من الشرعية، من العظمة، وأشياء من هذه، يحتاج إلى نوع من التفكر ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ الآخرون يتفكرون، أهل العلم، ويتفكر العامة، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بعدما قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٦) قال: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَومُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾(الأعراف:١٧٧) هم كانوا يظلمون، الله لا يحوِّل أحداً إلى أن يضرب له مثلاً من هذا المثل السيئ ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أو ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ إلاّ والظلم من جهة نفسه هو، هناك قال: ﴿حُمِّلُوا التَّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾(الجمعة:٥) هنا يقول: ﴿آتَينَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾(الأعراف:١٧٥) ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾، ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ألم يظلموا أنفسهم هم؟ كانوا جديرين بهذا المثل السيئ.

ترى القضية في الأخير كلها تدور حول كتب الله؛ ولهذا نقول: إن هذه القضية يجب أن نتمسك بها بجدية، وأن نرفض أيَّ شيء سواها على الإطلاق؛ لأن الأشياء العظيمة مبنية على كتبه، المخاطر الكبيرة كلها مبنية على الابتعاد عن كتبه، هو لا يحاسبك على أنك لماذا لم تتبع كتب آخرين، بل سيقوم الحساب على هذا الكتاب نفسه، والحياة المؤاخذة عليها هنا على أساس هذا الكتاب وموقف الناس منه: متبعين له أو معرضين عنه.

والناس معرضون عنه لو كان لديك ملء هذا المجلس كتباً فلن تنفعك على الإطلاق، قد يكون الإنسان في قائمة الحمير أو الكلاب ولديه مثل ملء هذا المجلس كتباً، وكلها باسم (أنها لخدمة الدِّين، وأن هذا إنسان عظيم أثرى المكتبة الإسلامية، وأصبح عدد مؤلفاته لا أدري كم على كم) هذه أشياء حاصلة في تاريخ الناس: هذه العبارات، لا نلتفت إلى ما يتكرر داخل القرآن، وهو يعرض لنا الأمم الماضية: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾(الأعراف:١٧٠) ﴿خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾(الأعراف:١٧١) في الآية السابقة مع موسى: ﴿وَأْمُرْ قَومَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾(الأعراف:١٤٥) أليس هو الآن يرينا كيف أنه سيطلَع حمير في دار الفاسقين، ويطلَع كلاب بسبب ماذا؟ لأنهم تركوا كتباً أخرى، أو فنوناً أخرى؟ أو لأنهم لم يمسِّكوا بالكتاب، وانسلخوا عن الكتاب؟ أليست كلها مبنية على الكتاب؟ والموضوع يُقدَّم بالشكل الذي يجعل الإنسان فعلاً يُعرِض تماماً عن أيِّ كتاب آخر على الإطلاق مهما كان.

أحياناً قد يكون شيئاً صحيحاً، لكن هو صحيح في وقته، منطق مُعيَّن في موضوع معرفة الله كان صحيحاً في وقته هناك أمام شُبَه كانت دائرة، بينما زمن آخر يقتضي منطقاً آخر، لا يهدي إلى أسلوب آخر إلى طريقة أخرى إلاّ الله، وعن طريق كتابه، وبطريقته هو، فقد يكون الشيء الذي تقدِّمه صحيحاً في ذلك الزمن [يأتي زمن آخر عندما تسير عليه] في واقع الحياة، تكون النتيجة ماذا؟ يجعلك أعمى، لا ترى كيف واقع هذه، وكيف السنن فيها، أمَّا رؤية القرآن فهي تجعلك تبصر، فترى آيات الله في القرآن، وآياته في الآفاق، وفي أنفسهم.

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠) قضية الهدى تحتاج إلى التجاء إلى الله، ودعاء بأسمائه ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠) وغالباً ما تُقدِّم الثقافة الخاطئة أسماء الله بشكل فيه إلحاد، فيه تحريف، فيه انحراف عن الحق، عن الصواب في الموضوع.

يأتي الإلحاد في أسماء الله بشكل أيضاً يُفقِد الإنسان ما كان يمكن أن يحصل في نفسه من أثر وجداني لمعنى اسم من أسماء الله، مثلاً داخلنا: (سميع، بصير) كيف يقدمونها؟ دائماً بمعنى عليم، أليست دائماً بمعنى عليم؟ عليم عليم، عليم...إلخ. هناك فرق في الأثر الوجداني بالنسبة لك أنت، أن تستشعر أن الله يراك، ويسمعك أكثر من مسألة يعلم، أكثر من فهمك أن المسألة تعني يعلم، لها أثر كبير في النفس: استحضار شهادة الله، رقابته، فيأتي أحياناً إلحاد في أسمائه، أي: ميل عن الصواب فيها، فيترك آثاراً سيئة في النفس.

الله يوجه الناس أن يدعوه بأسمائه فهي أسماء حسنى، هي حسنى من أصلها لا تحتاج إلى تأويلات أخرى، هو سمَّى بها نفسه لا تحتاج إلى "تشطيبات مِن عندك"[1] هو سميع بصير، لا تقل: لا، هي بمعنى كذا، هي بمعنى كذا! حصل داخل (المعتزلة) وداخل (الأشعرية) داخل (العدلية) وداخل (المجبرة) لأن أيَّ إلحاد في اسم من أسماء الله يُفقِد - في الأخير - الأثر بالنسبة له، بالنسبة للإنسان في نفسه.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣) شهيد يعني ماذا؟ قالوا: (عليم)! شهيد: (عليم)، سميع: (عليم)، بصير: (عليم)! أصبحت كلها (عليم) والله يقول: أسماؤه حسنى، أسماؤه في القرآن أيضاً ليست الأسماء التي قدموها (تسعة وتسعون) تلك ليست أسماء كلها، فيها نسبة كبيرة ليست أسماء، يذكر أشياء في أفعاله.

---

(١) التشطيب: من العامية في لغة أهل العمارة والبناء، وتشطيب الداريعني: استكمال العمل في الدار من بعد البناء.

أسماؤه التي سمى بها نفسه سبحانه وتعالى، واسمه الذي تقوم عليه أسماؤه هو اسم (الله) بالنسبة لنا كعرب، اسم (الله) لهذا يأتي هذا الاسم غالباً متصدراً لأسماء الله؛ لتقوم عليه الأسماء الأخرى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أليس هنا يبدأ باسم الله؟ اسمه، علَم لذاته، اسم له سبحانه وتعالى، وهو اسم من الأسماء الحسنة في نفسه؛ لأن معناه: الإله، الإله وحده، الله معناه: الإله، لكن نفس العبارة تعني: اسماً أوسع من موضوع اشتقاق، مرسخ اسم، بقية الأسماء تقوم على اسمه سبحانه وتعالى الله. أسماء باعتبار كمالاته سبحانه وتعالى، فباعتبار أنه لا يعجزه شيء: قادر، وباعتبار أنه لا يغيب عنه شيء: بصير، سميع، وباعتبار أنه لا يخفى عليه شيء: عليم، وهكذا.

لا تسمى صفات، من الأخطاء الكبيرة أنها قدمت تحت عنوان صفات، صفات الله، صفات صفات، حتى ترسخت في الذهنية وإذا الصفات أشياء لها استقلالية، والصفات متغايرة فيما بينها، ونتج عن ذلك إشكاليات كبيرة جداً عند المعتزلة، لا يوجد كلمة صفات، تسمى أسماء، هو حكيم، هو عليم، هو سميع بصير. هذه كلها أسماء له، سمى سبحانه وتعالى بها نفسه.

أسماء الله سبحانه وتعالى واسعة، سعتها نفسها لمسيرة الإنسان وشؤونه علاقة بسعتها؛ لأن شؤون الإنسان متنوعة، وأنت في حالة ضلال وهدى تقول: اللهم أنت الهادي فاهدنا، ألست تقول هكذا؟ أنت الغفور فاغفر لنا، أنت الرزاق فارزقنا، أنت العليم فزدنا علماً، أليست هكذا؟ أسماء أنت بحاجة إلى أن تدعوه بأسمائه؛ لأنك هنا تحتاج إلى مغفرة، تحتاج إلى رزق، تحتاج إلى رحمة، تحتاج إلى هدى، تحتاج إلى نور، وتحتاج إلى، إلى... أشياء كثيرة، أمامك أسماؤه واضحة، أنت بحاجة إلى رحمة اسمه: رحيم، من أسمائه رحيم، بحاجة إلى مغفرة من أسمائه: غفور، وهكذا، بحاجة إلى هدى هو الهادي، هو العليم، الهدى لا يخرج عن موضوع علم وقدرة ورعاية وحفظ، فهو حفيظ، عليم، قدير.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠) بل بلغت المسألة إلى درجة لم يعد يُقدَّم الكثير من أسمائه في إطار الحديث عن معرفته سبحانه وتعالى، قد صار يبحث مواضيع معيَّنة حول: حكيم، قدير، الله، وجوده... هكذا، لم يعد يبحث موضوع أسماء كثيرة جداً، أنه الملك، ماذا يعني ملك، جبار، سلام، مؤمن، مهيمن، عزيز، متكبر...إلى آخر ما ذكر.

الإنسان عندما يدعو الله باسم من أسمائه التي سمى بها نفسه، وعندما يسمع في القرآن الكريم اسماً من هذه الأسماء لا يحصل عنده أيُّ إشكالية أبداً، لا يوجد أيُّ تصورات أخرى، اترك منطق الآخرين ولن يحصل عندك شيء، لكن قد ترجع إلى الآخرين فيدنسون فطرتك، يدنسون فطرتك فعلاً، فإذا قال بأنه سميع، بصير، عليم، فهي قضية معروفة لدينا، لا يصاحبها أيُّ تشبيه، ولا أيُّ تمثيل، ولا أيُّ شيء.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(الأعراف:١٨١) لاحِظ مسيرة هذه الآيات، قد يحصل ضلال، وأن الهدى هو من عند الله وحده، أن من يضلون بأسباب مُعيَّنة لا يفقهون، لا يبصرون، لا يسمعون، هناك يحصل الضلال عن طريق إلحاد في أسمائه فهو سبحانه وتعالى سنته هكذا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أنه لا يترك عباده بدون هُداة، وكلمة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ماذا تعني؟ توجيه وإقامة قسط، أليس كذلك؟ وفق الطريقة القرآنية التي يقوم الخطاب عليها بالنسبة للناس، قُدِّمت هاتان القضيتان مفصولتين، ألم تُقدَّم في الأخير قضيتان مفصولتين؟ واعظون هناك، وقائمون بشؤون الناس هناك! واعظون هناك ناقصون يغلطون كثيراً "ومدِّيولين"[1] هناك ناقصون يغلطون كثيراً، القضية ليست على هذا النحو، بل ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ألم يقدِّم مسألة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قبل موضوع ﴿يَعْدِلُونَ﴾؟ لا يستقيم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ إذا لم يكن هناك استقامة في ﴿يَهْدُونَ﴾ لا يحصل على الإطلاق.

هذه القضية أساسية هي تعطينا رؤية حول إقامة القسط في هذه الحياة، أو حول ما يسمى: ولاية الأمر في الإسلام كيف هي، قدِّمت بشكل منقوص عند الزيدية أنفسهم، وقدِّمت بشكل منقوص أيضاً عند الآخرين، أمَّا الاثنا عشرية فقد صارت ضائعة تماماً، قدِّمت أيضاً عند السُّنية بشكل منقوص، قدِّمت عندنا ولاية الأمر تعني ماذا؟ (رئاسة عامة): تجييش جيوش، جمع زكاة، إقامة حدود، تعيين ولاة، عزل ولاة، وبالله التوفيق! انتهى الموضوع!

وقُدِّمت قضية الثقافة كل واحد على ما هو عليه، وكل مجتهد على ما ترجَّح لديه، وكل قارئ على ما صادف من

---

(١) مدِّيولين: متديولين: من اللهجة العامية، والديولة تعني: تولي السلطة والحكم.

كتاب يقرؤه، أو معلم يقرأ عنده! فصلوها عن الموضوع تماماً! كانت غلطة كبيرة جداً.المسألة غير مفصولة على الإطلاق، فهي تمثل النسبة الواسعة جداً - من شؤون ولاية الأمر في الإسلام - النسبة الواسعة جداً فيها موضوع ﴿يَهْدُونَ﴾ لأن كلمة ﴿يَهْدُونَ﴾ لا تعني ماذا؟ يَعِظون، ﴿يَهْدُونَ﴾ قضية أساسية، تربية، تقديم تربية، بناء أمة، بناء حياة ﴿بِهِ يَعْدِلُونَ﴾ إقامة القسط، قد تراه في الأخير قد يمثل ربما ٢٥٪ إذا صحت تقديرات إنسان كتقريب. ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ألم يقدِّم ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾؟ عندما فصلوا هذا الموضوع عن موضوع ﴿يَعْدِلُونَ﴾ فلا قامت ﴿يَهْدُونَ﴾ ولا قامت ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وضاعت الأمة نهائياً.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيدِي مَتِينٌ﴾(الأعراف:١٨٢، ١٨٣) لاحِظ الكلام كله أليس حول: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذب بآياتنا، انسلخ عن آياتنا...؟ وهكذا كلها. هذه توحي بأن الموقف الآخر الذي يُعتبَر مغايراً هو في الواقع يصبح أشبه شيء بتكذيب، حتى وإن لم يكن تكذيباً صريحاً، أمَّا إذا كان مكذباً تكذيباً صريحاً فهذا شيء واضح.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لاحِظ عندما يقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ من يقدِّمون آياتنا يقدمون آيات الله، لا يوجد هداة يخرجون عن إطار آيات الله على الإطلاق، هذه لا تحصل، يكون كتاب الله هناك وهداة هناك، لا يوجد هذا، سُنة إلهية من البداية بالنسبة للأنبياء أنفسهم، أليس النبي نفسه مرتبطاً بالكتاب؟ فعندما يقول الله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بالتأكيد كلها تقوم على آيات الله: كتابه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ عندما يكونون مكذبين واقعاً وليس صريحاً، فلن يكونوا هداة، ولا يكونون هداة. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ نعم، الاستدراج قضية خطيرة جداً، لا أدري إلاّ بالنتيجة السيئة ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾(الأنعام:٤٤).

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيدِي مَتِينٌ﴾(الأعراف:١٨٣) يملي لهم، لكن إملاء ليس على ما يرونه وكأنه إنعام لهم، وارتياح، واستقرار لهم، بل كيد، تكون النتيجة سيئة في الأخير.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الأعراف:١٨٤) عندما يقول: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(الأعراف:١٨١) فهو يجعل هداة معروفين عند عباده، وقابلين لأن يُعرَفوا، فعندما يقدِّمون لك: (أن هناك هداة لا تراه، ولا تسمعه) كما يعمل الاثنا عشرية: (أن هناك المهدي من عام ٢٥٥هـ إلى الله أعلم متى، وأنه المهدي للأمة، وأنه الحجة على الأمة، وإمام الأمة، وقرين القرآن...إلخ) غلط واضح. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ﴾ هنا يذكِّر أنه بَعث إليهم نبياً هم يعرفونه، ويعلمون بأنه ليس به جِنة؛ لأنه صاحبهم، لم يأتِ من بلاد أخرى لا يعرفونه، بل يعرفونه.

ثم يأتي التهديد: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: أن وراءه الله يعاقب، وفوقه الله يعاقب ويثيب. ليس هناك ﴿أُمَّةٌ﴾ يكون غائباً لا أحد يعرف عنه شيئاً على الإطلاق، مائة سنة بعد مائة سنة، ألف سنة، ومائة سنة، وأكثر! لا يجوز هذا على الإطلاق، أي: قضية غير مقبولة في دين الله على الإطلاق، هنا يذكِّر بأن الهداة يكونون هداة معروفين، ولو على أقل تقدير في البداية معروفين عند أصحابهم، ثم تتوسع معرفتهم تلقائياً، مثل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هل كان معروفاً في القرن الأول عند أهل ماليزيا، وأهل إندونيسيا؟ كان معروفاً في مكة واتسعت المعرفة حتى أصبح معروفاً عند الجميع.

تكون المسؤولية في البداية على أصحابه، أصحابه هم الذين يعرفونه، هم يعرفون ما به من جنة، وإذا استجابوا هم أمكن أن تتسع الدائرة، ويمكن أن يتسع الموضوع، إذا جلسوا هم شكّلوا عائقاً قد ينتهي في الأخير إلى أن يحصل استبدال بهم غيرهم، عندما أصرت قريش على تكذيب رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) استبدل بهم أهل المدينة: الأوس والخزرج، وآخرين.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ﴾(الأعراف:١٨٥) نفس النظرة التي يكرر أمثلتها في كثير من المواقع في السور، يأتي في جانب من الآيات موضوع التوجيهات، ثم يأتي بصفحة من ماذا؟ من مظاهر هذا الكون، يتبيَّن ماذا؟ أن هذا الكون هو له ملك، الله هو إله، ملك، ومدبِّر لشؤونه، ففيه ما يجعلك تتأكد وتطمئن بأنه فيما يتعلق بالجانب الآخر لا يمكن أن يغفل جانب الهداية، جانب الهداية التي نسميها: معنوية، أو جانب نظام هداية النفس.

هذه نفسها ترشدنا إلى كيف تكون نظرة الإنسان إلى هذه المظاهر، الشيء الذي ضُرِب تماماً على أيدي المتكلمين؛ والنظرة إلى هذه الحياة ستستقرئ فيها مظاهر الحق، تستقرئ فيها الدلائل على أنه لا يمكن أن

يكون هناك إغفال لهذا الجانب الذي يتقافز البشر فيه، لا يتقافز البشر الآن على موضوع الشمس، أناس يريدون أن يردوها (شرق) وأناس يريدون أن يردوها (جنوب) أو على موضوع الليل والنهار، يريدون أن يعكسوا الموضوع، أو يطولوا ساعات النهار أو الليل، ولا على موضوع المطر، ولا على موضوع الإنبات، ولا الإثمار، ولا شيء، هل هم يتقافزون؟ القضية محسومة من عند الله.

إذاً الجانب الآخر أيضاً ليس جانب أن يتقافزوا فيه، هم يتقافزون إلى الهاوية. جانب سلطان الله، ملك الله، هدى الله، تشريعه، نظامه لعباده، هو تماماً مثل الجانب الآخر الذي نرى شواهده في واقع الحياة، صوره، ثم تجلياته في حياة الناس، تجلياته في حياة الناس إلى درجة أنه هنا بشكل يوحي بأنه قد يستطيع الناس أن يلمسوا ﴿وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ من مظاهر وصور الحياة نفسها.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وهذه النظرة الهامة تجعل الإنسان يقرأ كتاب هذا الكون، ثم من وراء هذه القراءة يُبدع في هذا الكون نفسه، يخترع أشياء كثيرة، يصنِّع أشياء كثيرة، يطوِّر أشياء كثيرة ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ﴾.

ما معنى (ينظروا) هنا؟ هل ليعرفوا أن هناك الله؟ لا، بل ليعرفوا هذا الحق، يعرفوا أنه لا يمكن أن يُغفَل هذا الجانب على الإطلاق، فيتقافزوا هم على سلطان الله، ويتقافزوا هم للتشريع، يتقافزوا للسلطة، ويتقافزوا للتشريع، أليس هذا حاصلاً عند البشر؟ لماذا لا يتقافزون على الليل والنهار فيجعلون ساعات النهار أطول مثلاً؟ القضية محسومة هنا مثلما القضية محسومة هناك.

لكن عندما مسخ المعتزلة - وهذا من أسوأ ما عملوا حتى أصبحت الأمة جاهلة - مسخوا (النظر) عند الإنسان فلم يعد بالشكل الذي وُجِّه إليه في القرآن: ينظر في ملكوت السموات والأرض، النظر الذي في الأخير ينتهي إلى دراسة لمظاهر هذا الكون، في الأخير ينتهي إلى إبداع، إلى اختراع، إلى تصنيع؛ لأن حاجات الإنسان واسعة أيضاً، والإنسان لديه نوع من الفضول، وحاجياته واسعة، متى ما درس شيئاً في الأخير يصبح لديه فكرة: ربما لو عمل هذا، وأضاف معه هذا، ما الذي سيترتب عليه؟ يكتشف أشياء كثيرة في الطب، أشياء كثيرة في كل المجالات الأخرى، لأن التوجيه القرآني للنظر عند المسلمين كان بالشكل الذي يتكفل بأن يكونوا أسبق من الغربيين إلى ما وصل إليه الغربيون، وربما بشكل أرقى، وبطريقة يدخلون إليها عبادياً، عبادة، ليس على أساس افتقار لحاجة، الغربيون كانت المسألة لديهم حاجة (الحاجة أم الاختراع).

هم يأتون يأخذون الآيات التي فيها النظر كلها هنا وفي أيِّ مكان ثم يقولون: (فدل على وجوب النظر) أي: وجوب النظر؛ لتعرف أن هناك صانعاً! لا يتوصلون إلى الله، إنما هكذا، إنما في الأخير يشغِّلون ما لديهم من معرفة من طريق أخرى، أن هناك صانعاً.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٥) أيِّ حديث بعد كتاب الله، بعد آيات الله؟! ماذا ينتظر الناس؟! يأتي في أكثر من مقام يقول: ماذا تنتظرون بعد؟! أن يأتي الملائكة، أو يأتي الله، أو يأتي أمر ربك، أن تأتيهم الساعة بغتة، أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون؟ ماذا ينتظرون بعد؟!

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾(الأعراف:١٨٦) هناك قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٨). ﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(الأعراف:١٨٦) لم يبقَ إلاّ تمادٍ في طغيانهم، تمادٍ في عماهم، كله ضلال وظلمات بعضها فوق بعض.

﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾(الأعراف:١٨٧) هنا يُقدِّم لهم ما يمكن أن يكونوا ناجين به عندما تأتي الساعة سواءً تأتي قريباً أو تتأخر، لكن أن يسألوا متى ستأتي وهم في الواقع - سواءً جاءت قريباً أو تأخرت - ستكون بالشكل الذي يُعتبَر كارثة كبيرة عليهم، ماذا يستعجلون بها، فضول الإنسان أحياناً يكون "قَلَب"[1] ويكون أيضاً من مظاهر الضلال ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾.

ثم تجد كيف من أصبحوا ضالين: لا يهتمون بالقضايا الهامة التي هي أساسية بالنسبة لهم فيهتدون بها، بل يذهب يشغل ذهنه ونفسه وتفكيره بالقضايا التي ليس بحاجة إلى أن يتساءل عنها ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى ستأتي هذه الساعة ؟! هل هو بحاجة إلى هذا السؤال؟! ليس بحاجة إليه، هو بحاجة إلى أن يهتدي؛ لأنه إذا جاءت الساعة ستكون كارثة كبيرة عليه.

---

(١) القَلَب: من اللهجة العامية، وتعني هنا: الشيء المُخَالِف للصواب.

﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قضية كبيرة وهولُها كبير جداً، وقعة كبيرة ثقيلة في السموات والأرض ﴿لاَتَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾(الأعراف:١٨٧) إذاً فأفضل لكم أن تجهِّزوا أنفسكم بهذا الهدى الذي يأتي إليكم من غير تساؤل، يُقدَّم إليكم من غير أن تسألوا أنتم من البداية.

﴿يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾(الأعراف:١٨٧) أن عندك معلومات وافية عن متى ستأتي، أو أنك في ذهنيتك مشغول دائماً بأن تعرف متى ستأتي. الرسول نفسه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ليس مشغولاً بأن يعرف متى ستأتي الساعة بالتحديد، بل يعرف بأنها ستأتي فقط.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٧، ١٨٨) عندما تأتون إليَّ تسألونني على اعتبار أنني أعلم الغيب، أنا لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله. ﴿وَلَو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أليس هذا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الذي يقول الله له أن يقول للناس: ﴿وَلَو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ﴾؟ يأتي الآخرون ليقولوا: (الإمام يعلم الغيب، أو إذا أراد أن يعلم الغيب يعلم الغيب) هذا كلام باطل؛ لأن الرسول نفسه يقول: ﴿وَلَو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيهَا﴾(الأعراف:١٨٩) هذه آية هي تبدو أنها لا تعني آدم وحواء، ليست تعني آدم وحواء، فرق بين: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ جاءت هذه العبارة بالنسبة للناس أنه جعل منهم أزواجهم، أي: من نفس الجنس، من نفس النوع، هناك خَلَقَ في سورة (النساء): ﴿خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا﴾(النساء:١) فرق بين كلمة (جعل) - في كثير من المقامات - وبين كلمة (خلق) و(فطر).

والخطاب يبدو إمَّا أن يكون لقريش بشكل عام، أو ربما - مثلاً - لبيوتات منهم، وهم في نفس الوقت قد يكونون متعلقين بشكل كبير بموضوع الشرك، مثل قريش يبدو أنه كان فيهم مثلاً بيوتات منشدَّة إلى موضوع الأصنام، وأشياء من هذا، والبعض ليسوا منشدِّين إليها بهذا الشكل. يُبيِّن بأن الجد الواحد لهم مع زوجته هما في الأساس يعرفان الله مثلما قال سابقاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(الأعراف:١٧٢) يقول لهم بأن جدكم أنتم هو يعرف الله، على أساس لا يقولون فيما بعد: (إن آباءنا كانوا كذا وكذا، أو ربما لم يكونوا يعرفونك، ونحن جئنا ونحن لا نعرفك؛ فعبدنا أصناماً كما كانوا يعبدون) أنه حتى جدكم الأقرب - ربما - جد قريش بشكل عام، هو نفسه كان يعرف الله، لكن حصل على هذا النحو الذي ذكر بعد.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيتَنَا صَالِحًا﴾ مولوداً صالحاً ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(الأعراف:١٨٩) دعوا الله ربهما.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾(الأعراف:١٩٠) أشركوا في الموضوع، جعلوا لهم شركاء من غير الله فيه؛ لأن المشركين أيضاً يعتبرون أنفسهم وكأن شركاءهم شركاء لله فيهم: في عبوديتهم، يجعلونهم شركاء لله في الألوهية، شركاء لله فيهم ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف:١٩٠، ١٩١) فكأنه يوحي بأن قضية الشرك هي عادة تكون قضية ظاهرة، تحصل وهي شاذة في مسيرة الحياة والإنسان؛ لأنه حتى من بدأت على أيديهم لا يكونون جاهلين بالله، هناك قال: ﴿اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾(الأعراف:١٨٩) ألم يقل هكذا؟ أي: هم يعرفون الله وأنه ربهم ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: أن الشرك هو الشيء الذي هو شاذ في الحياة، شاذ بالنسبة لمسيرة الإنسان، لا يعتقدون بأنه هكذا مسيرة البشر جميعاً أباً عن جد: مشركون باستمرار، مشركون باستمرار، وكلهم جاهلون بالله، ليست بهذا الشكل، بل يأتي الشرك حالة طارئة لها بداية في تاريخ أمة من الأمم.

وقالوا هكذا تاريخهم بالنسبة لقريش: لم تكن الأصنام معروفة عندهم من زمان قديم بل دخلت من وقت مُعيَّن، أمَّا نفس هذا الجيل الأول فقد يكونون ضُلِّلوا هم عن طريق من روج للشرك حتى اعتقدوا الشرك، وجعلوا لله شريكاً فيهم! فقد يكون الشرك أتى إليهم من أيِّ منطقة مثلاً أثر على هؤلاء فبدأ الشرك.

إذاً هو قضية طارئة في المجتمع، لا تتصوروا بأن تقولوا: آباؤنا جيلاً بعد جيل إلى "مدري أيَّ حين"[1] ذكر سابقاً بأن إبراهيم (عليه السلام) الذي هو جدهم الأول مُسلِم، وأن الرسالة التي يُدعَون إليها هي ملة إبراهيم.

---

(١) مِدْري أيَّ حِين: تنطق هكذا في اللهجة العامية، وتعني هنا: إلى زمن بعيد.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف:١٩١) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيكُمْ أَدَعَوتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾(الأعراف:١٩٣) هذا حول الأصنام ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(الأعراف:١٩٤).

هنا يأتي الكلام ليقرر نقص هذه التي جعلوها آلهة - شركاءَ لله فيهم، شركاء لله في الألوهية - أنها ناقصة؛ ولهذا قال هنا بعد: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾(الأعراف:١٩٥) إلى آخره. أي: هذه لا تمثل شيئاً، هي ناقصة تماماً، لا تستطيع حتى أن تَسمعك، ولا أن تُبْصِرَك، ولا أن تنفعك بشيء، ولا أن تضرك بشيء على الإطلاق، هي ناقصة أنقص منك أنت كإنسان.

ثم يُبيِّن بأنها ليست بالشكل الذي يشكّل خطورة: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾(الأعراف:١٩٥، ١٩٦) أليس معنى هذا أن الشرك يُروَّج له في البداية، ويحاط بهالة من الأساطير؟ وأنها قد تكون بدايتها هكذا فعلاً بالنسبة للنفس الواحدة، للجد الواحد لهم، لم يشركوا إلاّ عندما قدِّم لهم في قالب من الأساطير، يفلسَف الشرك إلى أن أوقعوهم في الشرك.

يُبيِّن بأنها لا تمثل شيئاً: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ وبسرعة اضربوا ضربتكم، أي: أنها ليس لها أيُّ وزن على الإطلاق، ولا تمثل أيَّ خطورة على الإطلاق، كما تفهمونه أنتم، وبما قيل لكم عنها؛ لأنه كان يأتي تخويف للأنبياء من جانب من يعبدون الأصنام: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾(الزمر:٣٦).

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(الأعراف:١٩٦) ثم لاحِظ كيف جاءت العبارة بشكل صحيح، يقول: أنا متولٍّ إلهاً هو الله سبحانه وتعالى وحده، هذه كلها التي تتخذونها أولياء من دونه وتدعونها أتحداكم أن تجتمعوا أنتم وإياها ثم ﴿كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ أي: ليست تشكل أيَّ خطورة على الإطلاق، لم يقل: أنا هكذا، أنا لا أبالي بها ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ ليردهم إلى الله، هذا من أساليب الأنبياء الراقية. أليس الكثير من الناس عندما يأتي يحاول مثلاً إذا هناك "منشح"[1] يقول: (اتركهم، أتحداك أن يضروني)؟ لا يتذكر أن يقول: (أنا متولٍّ لله، هذه لا تعمل شيئاً).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾(الأعراف:١٩٧) وهكذا...إلى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾(الأعراف:١٩٩) في موضوع عندما تكون أنت تواجه مشركين كهؤلاء، أليس هو يُقدِّم هنا احتجاجات مُعيَّنة؟ أحياناً قد تكون القضية غير مناسب أن يحصل فيها لجاج، وتريد في نفس اللحظة أن تطلِّع منهم انخلاعاً كاملاً عن القضية ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ اعترافات مُعيَّنة، أثر مُعيَّن حصل في نفوسهم يكفي ﴿وَأَعْرِضْ﴾ ومن بعد.

أحياناً يؤدي اللجاج إلى طريقة تشد الإنسان إلى التمسك بما هو عليه، لكن حصل اعتراف مُعيَّن: فعلاً أن هذه فعلاً هي كذا، هل هي ضرتك في كذا؟ يقول: لا، هل هي نفعتكم في حرب كذا، أنتم وقبيلة كذا؟ قال: لا، قل: إذاً هذه ليست جديرة بأن تعبدها من دون الله. وهو سيسكت، سيفكر إلى أن تلقاه مرة أخرى، لكن عندما تحاول أن تخلعه[2] في نفس الوقت، فقد تكون قضية لا تحصل.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(الأعراف:١٩٩) هذا من ناحية الحوار والجدال مع آخرين، أسلوب الدعوة على هذا النحو يكون أرقى؛ لأنه: هل أعرض عنه نهائياً أو قعد وكل مرة وأظهَر شيئاً؟

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأعراف:٢٠٠) في مقام وهو يدعوهم، إمَّا أن يحصل تخويف فيحصل عنده ربما حالة توجس، هذه يعرف أنها من جانب الشيطان؛ لأن الإنسان بطبيعته إذا ما خُوِّف من أكثر من جهة وبأشياء متعددة يكاد أن يتأثر تلقائياً، إنما فقط يُماسِك نفسه.

هذا أسلوب في القرآن يأتي التخويف متعدداً ومتكرراً ومتنوعاً: خزي، مثل صاعقة عاد وثمود، رجفة، وأشياء من هذه، جهنم، سوء حساب، وفي كل مكان، هذا فعلاً يؤثر في نفسية الإنسان؛ لهذا لعن المرجفين، المرجفون هذا يخوِّف وهذا يخوِّف، وهذا قال: (سيأتي كذا) وكل واحد يقدِّم شيئاً غير ما يقدِّمه الآخر أو زيادة. هذه القضية يبرز فيها الشيطان، هذا جانب: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(فصلت:٣٦).

جانب آخر أحياناً في موضوع الدعوة قد ترى نفسك ذكياً وعندك قدرة على أن تبيِّن خطأ ذلك فعلاً تماماً، أليس كذلك؟ لكن لا، قد يكون مناسباً بأسلوب على هذا النحو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

---

(١) الْمَنْشَح: هو المكان الذي يُقدِّم الناس فيه قرابينهم لاعتقادات باطلة.

(٢) تخلعه: تنقله مما هو عليه مرة واحدة.

ولو كان لديك قدرة، ترى بأن لديك قدرة، الذي يبدو لك وكأن الشيطان قد يحاول أن يقول: (عندما اذهب ولم أتمكن من إقناعه أو فضحه في موضوعه هذا معناه ماذا؟ أنني سأبدو ضعيفاً عند الآخرين) أو شيء من هذا، ستدخل في لَجاج يجعل الآخر بعيداً عن أن يهتدي، فتكون أنت سلكت طريقة ليست طريق من يهدي، الشيطان يبرز في مقامات كثيرة.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وبشكل عام، عندما تراه يُقدِّم الصلاة في مواضع متعددة لأثرها، وتصريف آياته بشكل متعدد، يذكر لك: الشيطان يبرز هنا، وقد يبرز هنا، ويبرز هنا، في أيِّ مكان قد يحاول أن يعمل لك نزغة في أيِّ موضوع.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾(الأعراف:٢٠٠ -٢٠٢) إخوان الشياطين، الشياطين مع إخوانهم. المتقون المؤمنون يستبصرون فيرجعون (أبصروا) بينما إخوان الشياطين يؤدي إلى ماذا؟ إلى تمادٍ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَولاَ اجْتَبَيتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾(الأعراف:٢٠٣) أيضاً هذا من الأشياء الغريبة، تساؤل: لماذا لا تعطينا آية؟! وربما قد يكونون يمارسونه بطريقة فيها نوع من السخرية: (هل معكم لنا آية جديدة اليوم؟!) على أساس أنك أنت مَن تأتي بالآيات (هل قد جئتَ لنا بآية؟!) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لاحِظ هنا كيف يأتي منطقه دائماً، أي: يرسِّخ بالنسبة للأنبياء أن يرسِّخوا في أنفسهم وأمام الآخرين: أنهم عباد لله، ومأمورون من جهة الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ إنما أتبع ما يوحى إليَّ، إن جاءت آية فسنقدمها لكم، وإذا لم يأتِ شيء فليس هناك شيء، ماذا يعني هذا؟ لا تُظهِر نفسك دائماً وكأنك عَالِم لا يعجزك شيء مما يُلقَى عليك، يمكن أن تقول: (واللهِ ليس عندي معرفة بهذا، إن شاء الله إذا حصل لنا معرفة ممكن أن نعلمكم). هذه أيضاً هي موضع من مواضع نزغات الشيطان. في أيِّ مقام أنت تقدِّم ما تعرف، وإذا لم تعرف فقل: (واللهِ ليس عندي شيء).

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ﴾(الأعراف:٢٠٣) الذي قد قدِّم فيه بصائر، فكيف تقول: لولا ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَولاَ اجْتَبَيتَهَا﴾ (الأعراف:٢٠٣) هذا يعني أنه فيما قد قدِّم لكم بصائر وافية في القرآن نفسه، وفيما ينزل من القرآن ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ وهذا من عظمة القرآن، كيف أن الله يقول فيه: هذا بصائر، حتى بالنسبة لِمَا قد نزل منه، لم ينزل إلاّ - تقريباً - الثلثان، يُعتبَر بصائر كاملة فيما قد نزل منه. ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ﴾ وهي إشارة إليه إلى ما هو حاصل منه، وإليه ككتاب متكامل، ويتكامل في نزوله.

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:٢٠٣) فاستمعوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(الأعراف:٢٠٤) هذا بصائر فاستمعوا، لستم بحاجة إلى أن تتساءلوا، وتقولوا: (هل قد أصبح هناك كذا، وقد أصبح هناك كذا؟) لا، القضية هي جاهزة في هذا القرآن ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٤).

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾(الأعراف:٢٠٥) لاحِظ أليس هنا توجيهات للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كونه هادياً، ومعلماً، ومبلغاً لهذه الرسالة؟ أن يكون دائماً دائم التذكر لله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ تضرعاً إليه وخيفة منه ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَولِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(الأعراف:٢٠٥) ما كان جهراً أو دون الجهر من القول، جاء في مقامات أخرى جهراً وعلناً وسراً في النفس، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هنا توجيه بهذه القضية أكثر، تذكر ربك في نفسك، الذكر النفسي شيء آخر غير التذكر باللسان، وقد يكون على هذا النحو وإلى درجة دون الجهر من القول.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ﴾(الأعراف:٢٠٥) لأن مهمتك متوقفة على أن تكون دائماً مرتبطاً بالله، ودائم التذكر لله، وبالنسبة له هو ليبقى متواضعاً لله، يكون دائماً منشغلاً بتقديسه لله؛ لأن القضية خطيرة إذا انفرد مع نفسه، وهو يرى المقام العظيم الذي هو فيه، يوجه بذكر الله باستمرار حتى لو لم يمكن أن يتكلم، يذكر الله في نفسه، تسبيحاً لله، وتقديساً له.

﴿وَلاَ تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الإنسان إذا غفل فإن غفلته عن الله تؤثر جداً على مهمته وعلى نظرته إلى الله، ونظرته إلى نفسه، إذا كان من الغافلين فمعناه أنه قد صار منقطعاً إلى نفسه، وحصل خلل فيما قدمه و"تخربطت الأمور"[1].

والذكر هنا يُقدَّم في كثير من المواقع في حالات يكون له أثر نفسي، أي: أنه يُقدَّم أكثر من أن يُقدَّم في مواقع هي مواقع مضاعفة حسنات مثلاً، أو مضاعفة ثواب، يُقدَّم الذكر مرتبطاً بقضايا تكون - مثلاً - الأخطاء فيها

(١) تخربطت: من اللهجة العامية، وتعني: اختبصت.

كبيرةٍ إذا كان الإنسان ناسياً لله، أو يهتدي فيها وهو يذكر الله وهو متذكر لله، فقيمة الذكر هنا ينطلق من نفسه دائماً مستشعراً معه: التقديس لله، التعظيم لله، الإجلال لله، استشعار الحاجة إلى الله، استمداد الهدى من الله، وليس فقط أن يسبِّح على أساس (سبحان الله) الذي يبحث عن عشر حسنات! هذه قضية أخرى، هو يعلم قضية الثواب هو يأتي من عند الله، يوجد فارق كبير بين أن تسبِّح وفي ذهنك عشر حسنات، عشر حسنات، عشر حسنات...إلخ. هنا قد تسبِّح وأنت ناسٍ أن يكون تسبيحك بالشكل الذي يكون له أثر في نفسك، يتجه إلى ترسيخ عظمة الله، وقدسيته، وجلاله في نفسك؛ لهذا كان هذا الأسلوب مؤثراً جداً، تجدها هنا في مقام: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ هل المقام هنا مقام حديث مضاعفة حسنات أو ماذا؟ مقام تأثير نفسي ﴿فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ الغدو: أوائل النهار، الآصال: آخر النهار. ﴿وَلاَ تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٥، ٢٠٦) **صدق الله العظيم.**

إلى هنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الموافق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

الله أكبر
الموت لأمريكا
الموت لإسرائيل
اللعنة على اليهود
النصر للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

قاطعوا
البضائع الأمريكية
و
الإسرائيلية

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفة الله				
الثقة بالله ـ الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١ـ ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ ـ ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧ـ١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤ـ١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥ـ١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦ـ١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥ـ٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥ـ٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢ـ٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة ـ٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣ـ٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢ـ١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١ـ آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ ـ ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣ـ١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ ـ آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ ـ ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ ـ ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ ـ آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ ـ ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ ـ ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ ـ آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ ـ ١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨ـ١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣ ـ آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ